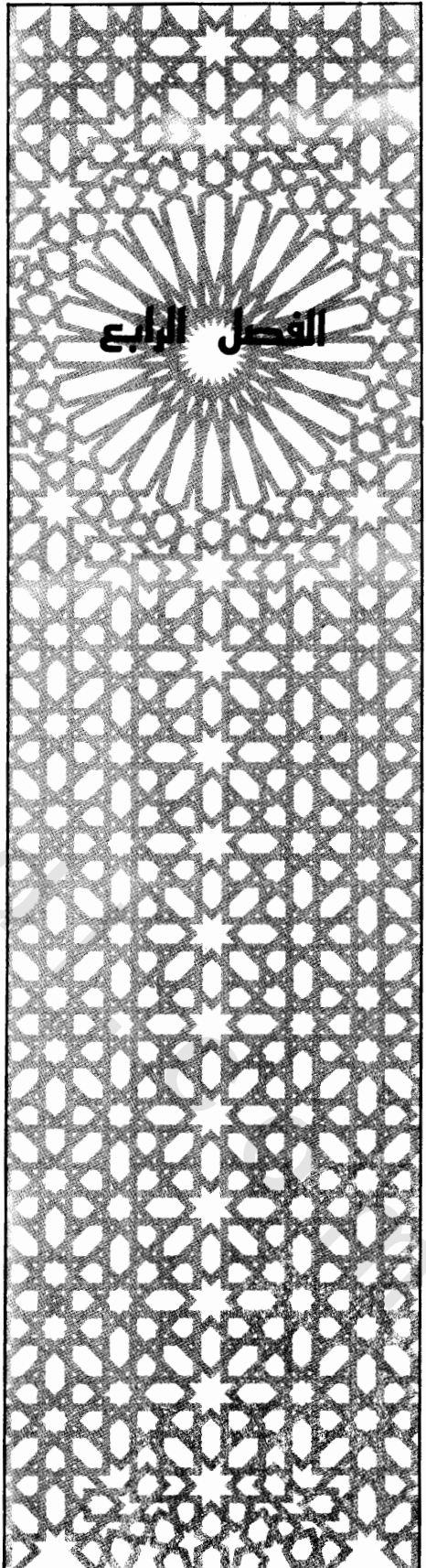

من هم أصحاب الكهف ؟

obeikandl.com

obeikandl.com

من هم أصحاب الكهف

بعد أن نفينا فى الفصل السابق عن تمليخا ومكسميلينا وغيرهما ممن وردت أسماؤهم فى قصة النيام السبعة وصف أصحاب الكهف، بعد أن دللنا على ما ذهبنا إليه فى هذا الصدد، يبقى أن نبين للقارىء: من هم أصحاب الكهف الحقيقيون ؟ وما موطنهم الصحيح ؟ وما مكان الكهف الذى أووا إليه ؟ هذا بالإضافة إلى عقيدتهم الصحيحة التى لم تكن مسيحية بولس القائمة على بنوة المسيح لله، وعبادة الثالوث، ولا عبادة يهوه إله بنى إسرائيل الذى جسموه وأطلقوا عليه من الأوصاف ما أملته عليهم أهواؤهم، ولكن كانت عقيدتهم الإسلام الذى يقوم على الإيمان بالله الواحد الأحد الذى لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد، والإيمان بملائكته وكتبه ورسله.

وسوف يقتضينا الأمر بيان ما كان عليه الحال فى فلسطين قبل بعثة المسيح عليه السلام، والفرق اليهودية التى كانت موجودة وقتئذ وابتعادها أو اقترابها من العقيدة الصحيحة، وموقفها من دعوة المسيح عيسى عليه السلام، ومواقعها على خريطة المنطقة، وما آل إليه حالها بعد وقوع الصدام فيما بينها، ثم بينها وبين الرومان.

وسوف يتبين القارىء أى المذاهب والطوائف التى سنتكلم عنها هى التى يمكن أن تكون الطائفة التى ينتمى إليها أصحاب الكهف: أهى طائفة الصدوقيين التى لا تؤمن بالبعث والحساب، أم طائفة الفريسيين التى وإن كانت تؤمن بالبعث والحساب إلا أنها حرفت العقيدة الصحيحة وانحرفت عن الناموس،

أم هى طائفة الآسيين أو الآسينيين كما يسميها الأستاذ العقاد، التى تؤمن بالله الواحد وتؤمن بالبعث والحساب وبالقضاء والقدر وبالملائكة والرسل. أم طائفة النصارى، أم كما يسميها الأستاذ العقاد النذيريين الذين مالبثوا أن انحرفوا عن الدين الصحيح إلى مازعمه بولس من بنوة المسيح لله وماترتب على ذلك من القول بألوهيته هو وأمه العذراء.

علاقة أهل الكهف باليهود:

على الرغم من أن البشارة بالمسيح قد جاءت فى التوراة على أنه رسول سوف يأتى بعد موسى، فإن الأسفار التى وضعها أنبياء بنى إسرائيل تضمنت أقوالاً مختلفة تماماً تتحدث عن منقذ إلهى يأتى لينقذ بنى إسرائيل من أيدى أعدائهم، وهذا المنقذ هو إما (يهوه) نفسه وإما ابنه أو ممثله المسيح.

ويقول ول ديورانت(١): «الراجح أن فكرة الإله المنقذ قد جاءت إلى غربى آسيا من بلاد فارس أو بابل، فالتاريخ كله والحياة كلها قد صُوِّرا فى الديانة الزرادشتية فى صورة صراع بين قوى النور المقدسة، وقوى الظلام الشيطانية، ثم يأتى فى آخر الأمر منقذ ــ شوشيانت أو مثراس ــ ليحكم بين الناس ويقيم العدالة والسلام الدائمين».

وقد انتقلت هذه الأفكار إلى الأسفار اليهودية، وكان كتاب (دانيال) الذى كتب فى عام ١٦٥ق.م ليشجع اليهود على الوقوف فى وجه انتيخس إيفانس ــ لايزال ذائعاً بين اليهود الذين لم يكونوا يعتقدون أن يهوه سيتركهم طويلاً تحت سيطرة الوثنيين. واتخذ كتاب (أخنوخ) وهو فى أكبر الظن من عمل عدة مؤلفين بين عامى ١٧٠، ٦٦ق.م صورة رؤى نزلت على الأب الأكبر الذى «سار مع الرب» فى سفر التكوين (الآية ٢٤ من الأصحاح الخامس) ويقص هذا السفر سقوط الشيطان ومن معه، وما أدى إليه ذلك من حلول الشر والألم فى حياة البشر، ثم نجاة بنى الإنسان على يد المسيح، وحلول مملكة السماء.

وفى سفر الرؤيا كلام عن القضاء على الشر والإثم بتدخل الله نفسه، أو

---

(١) الجزء الثالث، المجلد الثالث، صفحة ١٨٠.

بإرساله إلى الأرض ابنه أو ممثله المسيح وقد وردت كلمة المسيح ــ وهى بالعبرية محسيح ــ فى كثير من المواضع فى العهد القديم، وترجمها اليهود الذين كتبوا الترجمة اليونانية السبعينية للتوراة (حوالى ٢٨ ق. م) باللفظ اليونانى Christos أى الذى صب عليه الزيت المقدس أو مسح به). أو لم ينبىء به النبى (أشعيا) قبل ذلك العهد بمائة عام إذ يقول: «لأنه يولد لنا ولد، ونعطى ابنا، وتكون الرياسة على كتفه ويدعى اسمه عجيباً مشيراً، إلهاً قديراً، أباً أبدياً، رئيس السلام».

إذن فاليهود قد سبقوا بأفكارهم عن ابن الله، ولادة المسيح نفسه فمهدوا بذلك لشيوع الاعتقاد لدى الناس بأن لله ولداً، وقد نقلوا هذه الأفكار عن العقائد الوثنية سواء فى مصر أو فى فارس، والمعروف أنهم قد تأثروا بالعقائد البابلية أثناء نفيهم إلى بابل.

ومع ذلك فإن اليهود-أو بالأحرى-زعماءهم كانوا أول من ناصب المسيح العداء عندما ظهر، ويرجع السبب فى عدائهم له إلى أنه لم يكن فى شخصيته ولا فى سلوكه ولا فى دعوته محققاً لما كانوا يطمحون إليه، فطالما تطلعوا ــ وهم فى أسر الرومان ــ إلى من يخلصهم من الذل والظلم والاستعباد، فتوقعوا بطبيعة الحال أن يكون المنقذ على مستوى موسى أو داود أو سليمان، نبياً محارباً قوياً ينتصر لهم على أعدائهم وينتقم لهم منهم. وقد انتقلت هذه الأفكار إلى العامة الذين كانوا يشاركون بعض الصالحين فى ترقبهم لظهور المخلص والمنقذ، ومن هؤلاء الصالحين (شمعون) وكذلك (آنا) ابنة فانبول وغيرهما ممن كانوا يقضون حياتهم حول المعبد، صائمين يترقبون، ويصلون ويتضرعون لعلهم يرون هذا المنقذ قبل وفاتهم، وكان هذا الترقب يملأ قلوب الناس(٢).

ومما هو جدير بالملاحظة أن اليهود ظلوا يترقبون ظهور المسيح إلى ما بعد ميلاد عيسى بن مريم عليه السلام بمائتى سنة تقريباً، وذلك لعدم اقتناعهم أو بالأحرى عدم اقتناع غالبيتهم العظمى بأن عيسى بن مريم هو المسيح المنتظر، نظراً لما وجدوه من اختلاف واضح بينه وبين المسيح الذى صوره لهم أحبارهم، فبعد أحداث عامى ١١٥ ــ ١١٦ ميلادية، والتى قام فيها اليهود بقتل غير اليهود، فقام

(٢) المرجع السابق، صفحة ١٨٣.

هؤلاء وقتلوا من اليهود أعداداً غفيرة. وبعد أن تم إخماد الفتنة ظل من بقى من اليهود محتفظين بأملهم القوى فى ظهور مسيح يعيد بناء الهيكل ويعيدهم ظافرين إلى أورشليم، وفى الثورة التى وقعت فى عام ١٣٢ ميلادية كرد فعل لما أعلنه الإمبراطور (هادريان) فى عام سابق من اعتزامه بناء ضريح جديد لجوبيتر فى مكان الهيكل، وإصداره مرسوماً بتجريم الختان وتحريم تعليم الشريعة اليهودية علناً، تزعم المدعو (شمعون باركوشيبا) الثائرين، وادعى أنه هو المسيح، وقد انتهت هذه الثورة بهزيمة منكرة على أيدى الرومان.

وقد اعتبر بعض المؤرخين المسيحيين أن (هادريان) بتدميره لأورشليم وللهيكل قد وضع نهاية للصبغة اليهودية، التى كانت تصبغ المسيحية، والتى كان من شأنها لو أنها استمرت أن تجعل المسيحية كما لو كانت مذهباً إصلاحياً يهودياً يحافظ على القيود الشرعية القديمة والالتزامات الطقوسية الثقيلة، ويقولون إنه لو كانت هذه النظرية قد انتصرت لأدى ذلك إلى تدمير المسيحية كما دمرت أورشليم، أو لتحولت فى تلك الظروف البائسة إلى مذهب يهودى يعتبر من يعتنقه من الأمميين، فى نظر اليهود، أتباعاً من الدرجة الثانية أو كما كانوا يسمونهم «المهتدون حديثاً» أو المهتدون الجدد (٣).

الطوائف اليهودية:

كان اليهود قبل ظهور المسيح ينقسمون إلى ثلاث طوائف هى: الصدوقيون، والفريسيون، والآسيون، وكانوا مختلفين فيما بينهم حول البعث والحساب، فقد كان الصدوقيون يؤمنون بأن الكتب اليهودية الأولى لا تذكر البعث ولا اليوم الآخر، ولا تعد الصالحين حياة بعد هذه الحياة، ولذلك فإنهم لم يؤمنوا بهذه الأمور.

وكانت الحملة على السيد المسيح بقيادة اثنين من كبار الكهنة الصدوقيين، وهما «حنانيا» و«قيافا». أما الفريسيون فقد كانوا يؤمنون بالبعث والحساب، وينكرون على خصومهم الصدوقيين عدم اعترافهم بهما. وكانوا هم الأسبق إلى انتظار الخلاص على يد المسيح المخلص فى عالم الروح، وكانت هاتان الطائفتان أكبر الطوائف اليهودية. أما الطوائف الأخرى فكانت تقل عنها فى العدد كثيراً،

(٣) C.C. Baron Bunsen, God in History. Vol. 3. P. 51.

كما كانت تقل عنها فى القوة والثروة .

طائفة الآسينيين :

تعد هذه الطائفة أشد الطوائف اليهودية التى قامت قبل ميلاد المسيح غموضاً ، سواء من حيث نشأتها ونهايتها ، أو من حيث أفكارها ومعتقداتها . وقد تباينت الآراء بشأنها فمن قائل إنها هى التى كانت تقيم فى المنطقة التى عرفت فيما بعد بـ (خربة قمران) وسميت بطائفة قمران حيث عثر فى مغاراتها التى اكتشفت عام ١٩٤٧ على ما يسمى بلفائف قمران ، وهى وثائق من الجلد سجلت عليها الطائفة نظمها ومعتقداتها وآراءها وأموراً أخرى فى غاية الأهمية ، وألقت أضواء جديدة على التاريخ اليهودى ، وفضحت تزوير اليهود للتوراة ، واقتباس المسيحيين لكثير من أفكار ومبادىء الطائفة ونسبتها إلى المسيح . ومن قائل إن الطائفة الآسينية ليست هى طائفة قمران ، وإنما هذه غير تلك ودلل على ذلك بأدلة وإن كانت ليست حاسمة ، إلا أنها تلقى بظلال من الشك حول ما قيل من أن طائفة الآسينيين هى نفسها طائفة قمران ، وهو ما سوف نبينه فيما بعد .

غير أن الذى لا شك فيه أنه سواء أكانت الطائفتان مختلفتين أم كانتا طائفة واحدة اختلف اسمها فسميت مرة بالآسينية نسبة إلى ما كانت تتميز به من صفات ، وما يتمتع به أفرادها من مهارات ، وسميت مرة ثانية بالقمرانية نسبة إلى المكان الذى أقامت فيه ، وهى على ما يبدو تسمية جديدة لم تعرف إلا بعد اكتشاف الوثائق التى تركتها فى كهوف قمران ، حيث كانت تعيش ، فإن موقفها العادى للطائفتين اليهوديتين الكبيرتين وهما طائفة الصدوقيين وطائفة الفريسيين ، وغيرتها على العقيدة الصحيحة وتمسكها بالتوراة الحقيقية ، واحتفاظها بها بعيدة عن أى تزوير أو تغيير مما أدخلته هاتان الطائفتان على ما كان لديهما من نسخ للتوراة ، هو من الأمور التى أكدتها الدراسات النقدية والمقارنة التى أجراها العلماء المتخصصون فى الدراسات اللاهوتية .

واسم هذه الطائفة مختلف عليه كما أسلفنا فبينما يقول «ول ديورانت» (٤) إن اسمها (الآسية) مشتق من اللفظ الكلدى (اسشاى) Aschai ومعناه المستحم .

(٤) المرجع السابق ، الجزء الثالث ، المجلد الثالث ، صفحة ١٧٥ .

فإن دائرة المعارف الأمريكية تقول: إن اسمها Essenes مشتق من الكلمة الآرامية Hasen وهى قريبة من الكلمة العبرية Hasidim ومعناها تقى أو ورع. أما الأستاذ عباس العقاد(٥) فإنه يقول إن «الراجح من الأقوال المتعددة أن الاسم مأخوذ من كلمة (آسى) بمعنى الطبيب أو النطاسىّ فى اللغة الآرامية، وهى تفيد هذا المعنى فى اللغة العربية التى تعد اللغة الآرامية أقرب اللغات السامية إليها، ومن المعقول أن يتسمى أصحاب هذا المذهب بالآسيين؛ لأنهم كانوا يتعاطون طب الروح، ويدعون إبراء المرضى بالصلوات والأوراد، كما يدعون العلم بخصائص العقاقير» وهذا ما قاله (آليجرو)(٦) أيضاً حيث ذكر أن الآسينيين مارسوا مداواة المرضى، كما أخبر بذلك (يوسفيوس) فقد حصلوا من الأقدمين معلوماتهم الخاصة بالأعشاب التى تستخدم فى علاج المرضى وكذلك المعادن، ويقول: إن هناك تفسيراً من أكثر التفسيرات إقناعاً وهو الذى أمكن استخلاصه من اسمهم اليونانى وهو (Essaeoe or Esénoi) الذى ينطبق على الاسم الآرامى (ásayyá) ومعناه «الأطباء المعالجون» وهو على ما يبدو موصول بالاسم الذى أطلقه فيلو Philo على نظائرهم المصريين وهو «الخبراء بفن الشفاء» إذ المعروف أن هذه الطائفة كانت قد أقامت فى الإسكندرية قبل انتقالها إلى فلسطين، ويعزو آليجرو ما قام به السيد المسيح من أعمال أدت إلى شفاء المرضى إلى اتصاله بهذه الطائفة، وتعلمه منها، ويذكر ما جاء فى إنجيل لوقا(٧) عن المرأة التى كانت مصابة بالشلل فشفاها المسيح «وكان يُعَلِّم فى أحد المجامع فى السبت وإذا امرأة كان بها روح ضعف ثمانى عشرة سنة وكانت منحنية ولم تقدر أن تنتصب البتة، فلما رآها يسوع دعاها وقال لها يا امرأة إنك محلولة من ضعفك، ووضع عليها يديه ففى الحال استقامت ومجدت الله».

ولكن هناك من يرى(٨) أن كلمة (آسية) أصلها (قصية) أى أن حرف الألف يقابله حرف القاف ومعناها المعتزلة أو الخصية أى المتبتلة، ويذهب إلى

---

(٥) حياة المسيح، صفحة ٤١.

(٦) John Allegro, The Dead Sea Scrolls, Areappraisal, P. 147.

(٧) الأصحاح ١٣، الفقرات ١١ إلى ١٣.

(٨) يوسف درة الحداد، دراسات إنجيلية، الجزء الثانى، مصادر الوحى الإنجيلى، تاريخ المسيحية، صفحة ٦٠٧.

القول بأن ذكر هذه الجماعة قد ورد فى الإنجيل حيث ذكر: «فإن من الخصية من ولدوا هكذا من بطون أمهاتهم، ومنهم من خصاهم الناس، ومنهم من يعيشون كالخصيان فى سبيل ملكوت الله» إشارة إلى الكهنة الرهبان فى أديرة قمران.

ومع ذلك فإنه لا يلبث أن يعود إلى ترديد ما قاله العقاد وغيره من أنهم تلقبوا أيضاً بالأتقياء أى الآسينيين باللغة اليونانية؛ لأنهم تطرفوا فى الزهد بالنساء والولد والمال والطاعة لشريعتهم.

وقد توفرت عن الآسينيين معلومات قليلة منها ما ذكره المؤرخ اليهودى (فلافيوس يوسفيوس) Flavius Josephus الذى قدر عددهم بما لا يزيد على أربعة آلاف يعيش أكثرهم فى جنوب فلسطين. كذلك كتب عنهم الفيلسوف فيلون Philo Judaeus وهو أحد ثلاثة اهتموا بهذه الطائفة، فوصف المكان الذى عاشت فيه وتاريخها ومعتقداتها الخاصة، أما الثالث فهو المؤرخ الرومانى الكبير (بلينى) Peliny الذى لقى مصرعه عام ٧٩ ميلادية فقد قال عن الآسينيين إنهم طائفة خاصة من الناس أكثر إثارة للإعجاب من أية طائفة أخرى فى العالم، إذ تخلَّوْا عن النساء، فقد نبذ أفرادها الجنس كلية، وهم معدمون لا يملكون سوى أشجار النخيل، فقد كانوا يحيون حياة تقوم على العزوبة، ويزهدون فى الغنى والثروة، ويميلون للعزلة، ويبغضون الحياة الدنيا اللاهية الصاخبة، ويعكفون على التوبة».

وقد فسر يوسفيوس كراهية الآسينيين للزواج قائلاً: «إنهم لم يكونوا يدينون الزواج من حيث المبدأ، ولكنهم كانوا يريدون أن يظلوا بمنأى عن خلاعة النساء وفسقهن، إذ كانوا يعتقدون أنه لا توجد امرأة واحدة مستعدة للإخلاص لرجل واحد، وقد اقتبس فيلون فى كتابه Apologia Pro Judaeis آراء شديدة القسوة اعتنقها الآسينيون عن النساء بصفة عامة منها: أنهن أنانيات، شديدات الغيرة، ماهرات فى إفساد أزواجهن أخلاقيًّا، وغوايتهم بالفتنة بشكل لا يكاد ينتهى أبداً (٩).

---

(٩) Allegro, op. cit, p. 117.

ويقول الأستاذ العقاد(١٠) عن هذه الطائفة: «ومصدر قوتهم صرامة العقيدة وتنظيم الخطة.. وتكون دلالتهم أعظم من قوتهم؛ لأنهم طائفة من صميم الأمة الإسرائيلية قد استقلت بشعائرها وعباداتها وآرائها وأسرارها، وأوشكت أن تستقل عن الهيكل كله فى علاقتها بالدين والقومية، ولولا أنها تعترف بتقريب القرابين فى الهيكل لما حسبت من طوائف اليهود».

ويقول الأستاذ العقاد إن الطائفة نشأت على الأغلب بالإسكندرية فى القرن الثانى قبل الميلاد، واقتبست من مدارس الإسكندرية كثيراً من أنظمة العبادات السرية وبعض المذاهب الفلسفية. وهذا الكلام الذى قاله الأستاذ العقاد لا يختلف كثيراً مع ما قاله (ول ديورانت) من أن أعضاء الطائفة أخذوا عقائدهم وعباداتهم من نظريات الزهاد، ونظمهم التى كانت منتشرة فى العالم فى القرن الأول قبل ميلاد المسيح، كذلك فإن أعضاء هذه الطائفة كانوا يتآخون ويصطحبون اثنين اثنين فى رحلاتهم، وقلما كانوا يشاهدون فى المدن الآهلة بالسكان أو فى الأحياء التى يرتادها القصاد للفرجة وإزجاء الفراغ.

ويتفق ما ورد فى دائرة المعارف الأمريكية بشأن التاريخ الذى ظهرت فيه هذه الطائفة مع ما ذكره العقاد، فهى تحدد التاريخ الذى ظهرت فيه بالفترة الواقعة بين ١٤٠ق.م إلى ٦٨ ميلادية. وكان أعضاء طائفة الآسينيين يؤمنون بالقيامة والبعث ورسالة المسيح المخلص، يعتقدون أن الإخلاص بعث روحانى يهدى الشعب إلى حياة الاستقامة والصلاح، ورائدهم فى طلب الرضا من الله هو النبى «عمواس» الذى كان يعلم الشعب أن التقرب إلى الله بالعدل والرحمة خير من التقرب إليه بالذبائح والهدايا، ويقول المؤرخ اليهودى «يوسفيوس» إن حياة الكثرين منهم كانت تطول أكثر من مائة عام بفضل طعامهم البسيط، وحياتهم المنظمة.

وتضيف دائرة المعارف الأمريكية إلى ذلك أن ثقافة الآسينيين كانت تتكون من العهد القديم (التوراة) والتدريب على النظام وإنشاد التراتيل والتسبيح بالشكر لله.

---

(١٠) المرجع السابق، صفحة ٤٣.

وكانوا ينتظرون مجيء المسيح لينشيء على الأرض مملكة يتمتع الناس كلهم فيها بالمساواة، ولا يدخلها إلا من كانت حياته نقية طاهرة، وكانوا شديدى التحمس فى الدعوة إلى السلام، ويأبون أن يصنعوا شيئاً من أدوات الحرب. وإن كانوا قد أولوا اهتماماً خاصاً لما ورد فى سفر الرؤيا من وصف للمعركة بين قوى الخير وبين الشيطان. كما ساد لديهم الاعتقاد بأن نبوءة العهد القديم سوف تتحقق فى حياة الطائفة التى كانت تدعى الانحدار من أول كاهن أعلى وهو هارون أخو النبى موسى، وكانت تلتزم التزاماً شديداً بالناموس القويم أو التقليدى Orthodox وبالذات فيما يتعلق بطقوس الطهارة، كما كانوا يمارسون التعميد باعتباره من الطقوس التى يعبرون بها عن الندم والمعرفة، ويعتقدون أنه لا يكفى أن يكون مرة واحدة، وهذا أحد أوجه الخلاف بينهم وبين عامة اليهود، والخلاف الوحيد بينهم وبين النبى يحيى (يوحنا المعمدان) الذى كان يعتقد أن التعميد يكفى أن يكون مرة واحدة، فقد كان يماثلهم فى الزهد والتقشف (١١)، بل قيل إنه كان عضواً فى الجماعة، ولذلك فقد أصرت هذه الطائفة على رفض التعديلات المتصفة بالتساهل التى أدخلتها الطائفتان الأخريان، الصدوقيون والفريسيون نتيجة للمؤثرات الأجنبية.

وكان ذلك أهم أسباب الخلاف بينهم مما جعلها تتخذ لها موطناً فى البرية فى فلسطين، بعيداً عن المجتمعات اليهودية المستقرة لكى تتجنب ما كان يصيبها من أضرار نتيجة لاضطهادهم لها، ومن أجل أن تمارس معتقداتها التى كانت ترفض أن يصيبها المجتمع اليهودى الفاسد بالتلوث، وكانوا يعتقدون أن الله قسم العالم إلى جماعة مختارة ــ البقية الحقيقية من شعب إسرائيل ــ وأبناء الظلام، واعتقدوا أنهم وحدهم الذين سينجون من العذاب.

وفيما يتعلق بتاريخهم فقد ذكرت دائرة المعارف الأمريكية أنه بعد الثورة المكابية أو كما كانت تسمى أحياناً الثورة الهسمونية (١٦٧ق.م) أقدم اليهود الورعون على التحرر من الوهم الناشيء عن ممارسة العقيدة الهسمونية، وكونوا الجماعة الآسينية المعادية للفريسيين والصدوقيين، وكان الآسينيون يعتبرون مجتمعهم أو جماعتهم إسرائيل الجديدة، وكانوا يحكمون بواسطة ثلاثة كهنة واثنى

(١١) ول ديورانت، المرجع السابق، صفحة ٢١٦.

عشر شخصاً من المدنيين، كما كانوا ينتظرون مجيء المسيح الملكى، أى سليل داود من ناحية الملك وهارون من ناحية الكهانة. وكانت هذه الطائفة تعد، حتى قبل ميلاد المسيح وظهور دعوته، طائفة متميزة عن بقية اليهود، فلما اعتنقوا النصرانية فى صورتها الأصلية والصحيحة، اعتبروا أنفسهم ممثلى العهد الجديد، أما العهد القديم، عهد موسى، فإنهم كانوا يعتقدون أنه نقض نتيجة لضلال بنى إسرائيل، وأنهم (هم البقية الباقية) التى تحدث عنها الأنبياء.. إنهم إسرائيل الحقة.

والملاحظ أن المعلومات الخاصة بالطائفة الآسينية كانت قليلة بصفة عامة، بالنظر إلى أنهم هم أنفسهم لم يتركوا وراءهم كتابات خاصة بهم، وهو ما جعل الجدل يحتدم حول قيمة ما ذكره المؤرخون عنهم ومدى الثقة فيهم، فلما اكتشفت لفائف البحر الميت فى المنطقة التى تعرف بخربة قمران وغلب على ظن الغالبية العظمى من المؤرخين وعلماء الآثار وغيرهم من المهتمين بعلم مقارنة الديانات أن هذه اللفائف تخص طائفة الآسينيين، وأنهم هم أنفسهم قد خلفوها، زاد ذلك فى كم المعلومات الخاصة بهم، مما وفر للدارسين والمهتمين بهذه الطائفة بخاصة، وبنشأة المسيحية بعامة، أساساً قوياً يقيمون عليه دراساتهم وأبحاثهم، إلا أنه ظهر من بين العلماء الغربيين من يقول إن طائفة الآسينيين غير طائفة قمران، وهو العالم (جون آليجرو) الذى قدم بعض الأمور التى اعتبرها أدلة تؤيد ما ذهب إليه.

من ذلك قوله أنه قد تبين أن الآسينيين لم يكونوا يعيشون فى الصحراء مثلما كانت تعيش طائفة قمران، بل كانوا يعيشون فى مستوطنات متصلة بالمدن والقرى فى فلسطين فى جماعات صغيرة، وكانوا إذا سافروا من مكان إلى آخر، وحلوا على مستوطنة من المستوطنات التى يعيش فيها إخوانهم فى الطائفة، استضافهم هؤلاء وقدموا لهم كل ما يحتاجون إليه، باعتبارهم من المنتفعين بالملكية الجماعية لهذه المستوطنات؛ ولذلك فإنهم لم يكونوا يحملون معهم عند سفرهم أى شىء مما يحمله المسافرون معهم عادة؛ لأنهم حيثما حلوا يجدون ما يحتاجون إليه، ويقول: إن طائفة قمران لم تكن تطبق هذا النظام؛ لأنها كانت تقيم فى مكان واحد، وليس فى مستوطنات كثيرة، ومع ذلك فإنها كانت تطبق نظاماً قريباً من هذا النظام، بموجبه تقدم للمسافرين العابرين ما يحتاجون إليه من مأوى وطعام، خاصة إذا كانوا معدمين.

ويقارن آليجرو بين هذا النظام وما كان يفعله السيد المسيح، وذلك لأنه ــ أى آليجرو ــ يعتقد أن المسيح كان قد اقتبس الكثير من النظم التى كانت الطائفة الآسينية تطبقها فيقول إن المسيح كان يبعث بأتباعه إلى الأقاليم وهو على ثقة من أن الجماعات التى سيتصلون بها سوف تحسن ضيافتهم، وأشار فى هذا الصدد إلى ما جاء فى الإصحاح العاشر من إنجيل متى: «لا تقتنوا ذهباً ولا فضة ولا نحاساً فى مناطقكم ولا مزوداً ولا ثوبين ولا أحذية ولا عصا؛ لأن الفاعل مستحق طعامه» كذلك يقارن آليجرو بين موقف الآسينيين من النساء، وموقف طائفة قمران منهن، بطريقة يبدو منها إصراره على اعتبار أن إحدى الطائفتين ليست هى الأخرى فهو يقول (١٢): «كذلك نجد أوجهاً كثيرة للتطابق بين جماعة قمران وطائفة يهودية قديمة تعرف بالآسينيين وصفها لنا يوسفيوس ومؤرخون آخرون ويعتقد كثير من الدارسين أن جماعة قمران تتوحد على الأقل، مع أحد فروع الحركة الآسينية التى كان أفرادها لا يتزوجون، واهتموا بإثبات أن إحدى وثائق قمران تشتمل على ما يمكن الاستدلال به، على أن الطائفة كانت قد أدخلت تعديلاً على التعليمات التوراتية لكى تتفق مع هذا النوع من المواقف».

غير أن آليجرو نفسه استدل من بعض لفائف البحر الميت التى درسها على أن جماعة قمران، على خلاف الآسينيين، كان يوجد فيها نساء وأطفال، حيث ورد فيها «وعندما تحضر النساء يجرى جمعهن معاً ومعهن أطفال، ويتلى عليهن نظام العهد الذى يرتبط به أعضاء الجماعة» وفيما يتعلق بالزواج تقرر الطائفة أن الرجل لا يتخذ امرأة زوجة له إلا بعد أن يبلغ العشرين من عمره، وإلى أن يبلغ هذا العمر ينبغى عليه أن يعرف الفرق بين الخير والشر، كما يجب عليه أن يلم بالمسئوليات التى تترتب على الزواج، أما المرأة التى يزمع أن يتخذها زوجة له، فإنها طالما لم يبلغ العشرين من عمره بعد، يكون لها أن تشهد ضده إذا ارتكب أى عمل يستلزم اتخاذ الإجراءات القانونية قِبَلَهُ، كما أن لها أن تتخذ قرارات على استقلال عنه فيما يتعلق بأهدافها فى الحياة.

وهناك دليل آخر على وجود النساء فى قمران، هو ما جرى الكشف عنه من

---

(١٢) Allegro, op. cit, p. 118.

هياكل عظميّة لنساء دُفِنَّ فى مقبرة الطائفة، وأكثر من ذلك فإن بعض نظم وثيقة دمشق يبدو منها أنها صيغت لتنظم الحياة الأسرية، فهى تتكلم عن الأرامل من النساء وغير المتزوجات اللاتى يحتجن إلى مساعدة، وفيما يتعلق بالطلاق فإن أعضاء طائفة قمران كان لديهم نفس الاتجاه الذى ينسب إلى يسوع فيما يسمى بموعظة الجبل، حيث قال (١٣): «وقيل من طلق امرأته فليعطها كتاب طلاق، وأما أنا فأقول لكم إن من طلق امرأته إلا لعلة الزنى يجعلها تزنى، ومن يتزوج مطلقة فإنه يزنى». وهذا ضد عادة أحبار اليهود فى السماح بحرية الطلاق، فوثيقة دمشق تعاقب «الزواج بامرأتين على التعاقب، فى حياة الرجل» مثل يسوع، علماً بأن تعاليم طائفة قمران سابقة على تعاليم المسيح، كذلك موقفها من زنى النظر، حيث اعتبرت النظر إلى امرأة بشهوة كالزنى فنقرأ فى تعاليمهم عن «الاشتهاء الذى يلى النظر» وعن «عناد القلب الآثم والعينين الشهوانيتين» ثم يأتى يسوع فيقول: «قد سمعتم أنه قيل للقدماء لا تزن، وأما أنا فأقول لكم إن كل من ينظر إلى امرأة ليشتهيها فقد زنى بها فى قلبه» (١٤). وهذا كله يعنى أن مجتمع قمران كان على خلاف الآسينيين، يضم نساء ويعترف بالزواج والأسرة (١٥).

ومع ذلك فإن آليجرو لم يهتم ببيان أوجه الاختلاف الأخرى بين الطائفتين الآسينية والقمرانية، ووجه اهتمامه إلى الطائفة الثانية متعمداً فى كل ما قاله عنها على ما وجده فى وثائقها التى خلفتها وراءها فى كهوف قمران، وعلى الرغم من وجاهة الأدلة التى استند إليها للقول بأن الطائفة الآسينية غير الطائفية القمرانية، فإن اعتماد معظم المؤرخين وعلماء الآثار وغيرهم من المهتمين بالديانات القديمة للمعلومات التى اشتملت عليها لفائف البحر الميت على أنها معلومات خاصة بالآسينيين، وتقريرهم أن سكان قمران هم الآسينيون، ـــ جعل من الصعب قبول ما ذهب إليه «آليجرو» من أن هؤلاء غير أولئك. والواقع أن هذه المسألة ليست بذات أهمية، فسواء أن يكون الآسينيون هم سكان قمران أو ألا يكـــونوا، وإنما

---

(١٣) متى، الأصحاح الخامس، ٣١.

(١٤) المصدر السابق، رقم ٢٧.

(١٥) Allegro, op. cit, p. 114.

الأمر البالغ الأهمية هو ما كشفت عنه «لفائف البحر الميت» الخاصة بالطائفة اليهودية التى كانت تقيم فى قمران من معلومات خطيرة ألقت الضوء على التاريخ اليهودى فيما قبل ميلاد المسيح، وما قام به اليهود من أعمال، أقل ما توصف به أنها مشينة، حيث زوروا التوراة، بأن أضافوا إليها ما أملته عليهم أهواؤهم، وحذفو منها ما وجدوا أنه يتعارض مع شهواتهم الدنيوية وأطماعهم، ليس ذلك وحسب، بل إن اللفائف كشفت كذلك عن كثير من الحقائق المتعلقة بدعوة السيد المسيح، والتى نجح «بولس» وغيره من دعاة التثليث فى إخفائها منذ الربع الأخير من القرن الأول الميلادى وإلى أن عثر على اللفائف فى كهوف قمران عام ١٩٤٧ وما تلاه من أعوام.

وسواء أكان الآسينيون هم طائفة قمران أم لم يكونوا، فإنهم ــ ومعهم هذه الطائفة ــ يمثلون القلة من اليهود الذين حافظوا على التوراة سليمة دون أن يمسها تزوير، وهم الذين آمنوا بالله فلم يشركوا به أحداً، كما آمنوا برسله البشر لا الآلهة ولا أبناء الله. فلم يقولوا: إن عيسى بن مريم ابن الله كما قال بولس وشيعته، كما أنهم لم ينكروه كما فعل بقية اليهود، بل آمنوا به بشراً رسولاً، فالآسينيون هم القلة التى آمنت بالتوراة والإنجيل كما أنزلهما الله، أما الغالبية فهم الفاسقون الذين قال الله تعالى فيهم:

﴿وَلَوْ ءَامَنَ أَهْلُ ٱلْكِتَٰبِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُم ۚ مِّنْهُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾ (١٦).

قصة العثور على لفائف البحر الميت:

فى صيف عام ١٩٤٧ عثر على كهف بالقرب من البحر الميت، حيث اكتشفت مخطوطات من كتاب (أشعيا) تعد أقدم، بحوالى ألف عام، من أى مخطوط عبرى عن العهد القديم عرف حتى الآن، ثم تتابعت الاكتشافات فى المنطقة التى تعرف باسم (خربة قمران). وقبل أن يمضى وقت طويل كان العالم قد امتلك بقايا مئات من اللفائف التى تكشف عن فترة يمكن اعتبارها حتى

(١٦) سورة آل عمران، الآية ١١٠.

الآن، واحدة من أهم الفترات فى تاريخ الإنسان، كذلك فإن الاسئلة التى طالما شغلت عقول الدارسين والمهتمين منذ بداية البحث والدراسة النقدية فى أصول المسيحية، أصبح من الممكن الإجابة عنها بعد العثور على هذه اللفائف، وقد لعبت المصادفة دوراً كبيراً فى هذا الكشف.

ذلك أنه بينما كان أحد الرعاة وهو فتى بدوى يدعى محمد الدهب، ينتمى إلى قبيلة تميرة التى كانت ترعى قطعانها من الماعز فى البرية التى بين بيت لحم والبحر الميت، يطارد معزة من قطيعه هربت منه، ومضت تتسلق الجبل الصغير إلى أن بلغت قمته وهو فى إثرها—إذا به يعثر على كهف، فلما دخله وجد فيه عدداً من الجرار التى كانت اللفائف بداخلها ولما عاد محمد إلى مضارب القبيلة أخبر صديقاً له أكبر منه سناً بما حدث، فذهب معه فى اليوم التالى إلى الكهف وهما يظنان أن بالجرار كنزاً من الذهب، حيث إن محمداً لم يكن قد عرف ما بها بعد. ولذلك فإنهما أصيبا بخيبة أمل عندما قاما بتحطيم جرتين ولم يجدا بهما شيئاً، فلما حطما الجرة الثالثة ازدادت خيبة أملهما لما وجدا أن ما بداخلها ليس إلا لفائف من الجلد البنى، وعند عودتهما إلى مضارب القبيلة حملا معهما بعض اللفائف التى بلغ طولها عند فتحها ما يساوى المسافة بين طرفى الخيمة، ووجدا عليها كتابة عجزا عن قراءتها، وظنا لأول وهلة أنه لا فائدة تعود عليهما مما وجداه.

.ومع ذلك فقد حملا معهما اللفائف التى كان عددها ثلاث لفائف،ومضيا إلى السوق الذى كان يقام فى بيت لحم فى يوم محدد من أيام الأسبوع، حيث كانا يذهبان مع بقية أفراد القبيلة لبيع اللبن والجبن، وكان هناك رجل من المسيحيين السريان يتعاملان معه اسمه خليل إسكندر شاهين،ويعرف فى البلدة باسم الشهرة (كاندو) Kando كان يمتلك محلاً للبقالة وآخر إسكافياً.

وعندما أطلعه البدويان على اللفائف أظهر اهتماماً قليلاً بها، ولكنه فكر فى أنه يمكن أن يستخدمها كمادة خام فى عمله كإسكافى، وأخيراً، وبعد أن ظلت ملقاة فوق سطح محله لعدة أيام، التقط واحدة منها وتفحصها، فبدا له الخط المكتوب عليها بلا معنى، ولكن خطر بباله أن رعاته الروحيين فى القدس يمكن أن يعرفوا أكثر عن هذه الخطوط؛ومن ثم فإنه انتهز فرصة سفره إلى القدس، وحمل

معه اللفائف وتوجه بها إلى دير القديس مرقس (سان مارك) للمسيحيين السريان، الذى يقع فى المدينة القديمة، وكان كل هم (كاندو) أن يعرف ما تمثله اللفائف من قيمة مالية؛ ولذلك فإنه رأى قبل أن يعرضها على كهنة الدير، أن يجمع منها أكبر عدد؛ ولذلك فقد صحب صديقاً له يدعى «جورج» وذهبا إلى الكهف الذى وصفه لهما البدويان، وقاما بجمع عدد من القطع الكبيرة من اللفائف الممزقة، وبعد أن أخذا كل ما أمكنهما جمعه، وجدا أنه لم يعد هناك ما يمنع من إخبار السلطات السريانية لدير القديس مرقس بالأمر.

ولما علم المطران السريانى بادر بدوره إلى تنظيم حملة إلى الكهف للتنقيب فى المكان، فقامت الحملة بعمل فتحة كبيرة قرب الأرض، وانتزعت كل شىء أمكنها أن تضع أيديها عليه، كل ذلك دون أن تخطر المسئولين فى الحكومة التى كانت فى ذلك الوقت تابعة لسلطات الانتداب البريطانية، ثم للحكومة الأردنية بعد إعلان بريطانيا إنهاء انتدابها على فلسطين، مما يصم هذا العمل بعدم المشروعية لمخالفته لقوانين الدولة التى تظل مالكة لكل المواد الأثرية التى انتزعت من أرضها، ويحق لها أن تطالب بها وتسعى جاهدة لاستردادها، ولكن متى كانت الحكومات العربية تهتم بمثل هذه الأمور؟! وما الذى فعلته من أجل استرداد الآثار التى لا تعد ولا تحصى، والتى نهبت من بلادها ونقلت إلى الدول الغربية؟!

واستمر البحث فى كهوف قمران وأحيط بالسرية، وحدثت أضرار كثيرة نتيجة لذلك، وفى هذه الأثناء قام كاندو بإيداع اللفائف التى فى حوزته لدى المطران مقابل أربعة وعشرين جنيهاً إسترلينيا، فى حين استمر المطران يحلق كالصقر حول المؤسسات العلمية المختلفة فى القدس، يريد أن يكوّن فكرة عن القيمة المادية للفائف، ويبدو أن إحداها عرضت على الأستاذ (سوكينيك) E.L. Sukenik بالجامعة العبرية، الذى احتفظ بها بعض الوقت حتى يتمكن من دراستها، ولكنه بدأ يبحث عن بقية اللفائف بعد أن تحقق له أنها قديمة جدًّا، وأن لها قيمة عظيمة، ثم قام برحلة محفوفة بالمخاطر إلى بيت لحم، بالنظر إلى نشوب المعارك بين العرب واليهود عقب انسحاب دولة الانتداب، واتصل بكاندو من أجل أن يحصل منه على ثلاث لفائف أخرى، ولكن كاندو كان قد بدأ يشعر بالفزع منذ أن اعتراه الخوف من تسرب أخبار التنقيب عن هذه الآثار بطريقة غير

مشروعة ؛ لأنه يمكن أن يعتبر مسئولاً أمام الحكومة الأردنية عما حدث ، ومن ثم فقد أخذ بأسباب الحذر وقام بدفن بعض من القطع الكبيرة التى حصل عليها من أحد الكهوف فى الحديقة الخلفية لبيته فى مدينة بيت لحم ! ولسوء الحظ ، فإن تربة الحديقة كانت إلى حد ما مختلفة عن الرمال الجافة الموجودة فى (قمران) حيث يوجد الكهف ؛ ولذلك فإنه عندما ذهب لاستخراج قطع اللفائف ، فيما بعد ، وجدها وقد تحولت إلى ما يشبه العِصِىّ المصنوعة من مادة كالغراء مما أدى إلى فقدانها لقيمتها تماماً .

وفى الوقت نفسه ، استمر المطران السريانى فى جولاته محاولاً أن يكتشف ما إذا كانت اللفائف قديمة حقاً ؛ وأخيراً ، وفى ١٨ من فبراير عام ١٩٤٨ اتصل هاتفياً بالمدرسة الأمريكية للبحوث الشرقية ، وتكلم مع الدكتور (جون . س . تريفر) John c. Trever الذى كان يقوم بصفة مؤقتة بعمل مدير المؤسسة أثناء غياب مديرها الأصلى ، وأخبر المطران الدكتور (تريفر) كذباً أنه بينما كان يبحث فى مكتبة الدير ، عثر على بعض المخطوطات العبرية القديمة التى يريد أن يعرف رأيه بشأنها ، وجرى تحديد موعد للقاء فى اليوم التالى ، وبعد مقارنة سريعة للفائف بصور بعض المخطوطات العبرية القديمة وإجراء بحث معقد فى القواميس والفهارس الأبجدية — Concordances اكتشف (تريفر) أن بين يديه مخطوطة أشعيا ، وأنها قديمة جداً حقيقة ، وطلب من المطران أن يأذن له بتصوير اللفائف ، وبعد مفاوضات سمح له المطران بذلك ، واستمر (تريفر) فى فحص اللفائف ، وكان كلما تقدم فى العمل ازدادت دهشته أكثر فأكثر ، حيث تبين له من المقارنة التى أجراها بينها وبين صورة لورق البردى خاصة باليهود السابقين على المسيحية أنها أقدم منها بالفعل ، وأدرك أنه حصل على أقدم مخطوطة للتوراة لم تكن معروفة لأحد من قبل ، ومع ذلك فإنه بذل جهداً كبيراً من أجل أن يكبح حالة نفاد الصبر التى كانت تنتابه كثيراً أثناء العمل ، وتدفعه إلى أن يعلن عن اكتشافه الخطير ، واستطاع أن يؤجل ذلك إلى ما بعد قيامه بالاتصال بأمين المتحف الفلسطينى فى ذلك الوقت ويدعى (هارى أليف) Harry Illife الذى كانت تربطه به علاقة قديمة ، ودعوته إلى الذهاب إلى جرش Jericho لالتقاط بعض الصور لأعمال التنقيب التى كانت تجرى هناك .

كذلك ناقش (تريفر) المطران فيما إقترحه عليه من أخذ الوثائق إلى خارج

مدينة القدس، بعد أن اشتدت المعارك بين العرب واليهود، وامتدت إلى الشوارع والوديان، مما جعل علماء الآثار يغادرون المدينة فراراً من خطر الحرب، وحتى شهر نوفبر عام ١٩٤٨ عندما وصلت نسخة شهر أبريل من نشرة المدارس الأمريكية للبحوث الشرقية إلى القدس، لم يكن السيد (لانكستر هاردنج) Lankester Harding المسئول الجديد عن الشئون الأثرية لفلسطين العربية، والضفة الشرقية للأردن ــ قد علم أنه منذ ثمانية عشر شهراً مضت بدأت عمليات الكشف التى لا يصدقها عقل فى البحر الميت.

أما المطران السريانى فقد نجح فى تهريب اللفائف التى فى حوزته إلى خارج فلسطين، حيث حملها إلى الولايات المتحدة، ولما علمت الحكومة الأردنية بالأمر طالبت بإعادة اللفائف فوراً، ولكن ــ وبعد أن جرى النشر فى الصحف عن اللفائف وأهميتها ــ ارتفعت قيمتها المالية مما جعل المطران يرفض طلب الحكومة الأردنية، ويصر على الحصول على الثمن المرتفع الذى عرض عليه، ويقول (آليجرو) (١٧) «إن الضوء الوحيد اللامع فى هذه القضية البائسة، والذى لاح فى هذه المرحلة يتمثل فى موافقة المطران والسيد (تريفر) والمدارس الأمريكية للبحوث الشرقية على تصوير ونشر اللفائف فى الحال، فى الوقت الذى كانت تدور فيه المفاوضات بشأن شرائها، وقال الأمريكيون للمطران: إن تصوير اللفائف ونشرها بسرعة سوف يعزز من قيمتها المالية، وفى الحقيقة فإن العكس هو الذى حدث، فقد انخفضت قيمتها بصفة مؤقتة، حيث أتاح النشر للمهتمين الفرصة للاطلاع على الصور مما أغناهم عن الاطلاع على الأصل، أو على الأقل لم يجعله مطلباً مُلِحًّا.

كذلك فإن الدارسين الأمريكيين قاموا بعملهم بمهارة عظيمة، جعلت الصور التى التقطوها للفائف تأتى على درجة عالية من الدقة بشكل غير عادى، فضلاً عن أنهم فعلوا ذلك بسرعة، فقدموا خدمة جليلة للباحثين والدارسين لا شك فى أنهم يدينون لهم بهذا الفضل.

وفى الأردن شرع (هاردنج) فى البحث عن المزيد من اللفائف فى المنطقة

---

(١٧) Allegro, op. cit, p. 23.

التى يوجد فيها الكهف الذى سبق العثور على اللفائف فيه، يساعده فى ذلك شخص يدعى يوسف سعد، وعاونهما فى ذلك المسئولون الأردنيون، وكان من بينهم ضابط إنجليزى يعمل فى الجيش الأردنى يدعى البريجادير (آشتون) Ashton ، وآخر عربى يدعى عكاش الزبن Akkash El Zebn وكان ذلك فى ١٥ من فبراير ١٩٤٩.

وفى ذلك الوقت كان المطران السريانى قد رفع الثمن الذى يطلبه فى اللفائف التى فى حوزته إلى مليون دولار، فلما أذاعت الإذاعات المختلفة هذا الخبر، وسمع فى الأردن بادر البدو إلى رفع أثمان اللفائف التى فى حوزتهم، وانتشرت فى المنطقة حمى البحث عن المزيد منها، وقد أدى هذا إلى أضرار كثيرة، منها أنه أصبح متعذراً جمع اللفائف السليمة وشذرات اللفائف التى كانت قد تمزقت، سواء بفعل العوامل الطبيعية، أو بفعل الإنسان، فى مكان واحد من أجل دراستها بشكل متكامل، واستخلاص أكبر قدر من المعلومات منها، كذلك فإن رفع البدو لأسعار ما فى حوزتهم من اللفائف وقف عقبة فى طريق جمعها، وحولها إلى سلعة يضارب الناس عليها دون أى تقدير لقيمتها التاريخية والعلمية.

ومما يؤسف له حقاً أن هذه الثروة التى لا تقدر بمال قد ضاعت من أيدينا، وانتقلت إلى اليهود والمؤسسات الكنسية والتبشيرية مما حرمنا من أن ندرسها فى ضوء ما ورد فى القرآن والسنة بشأن اليهود، سواء قبل بعثة المسيح أو بعد بعثته، وما اشتملت عليه رسالته من أمور لم يلبث (بولس) أن طمسها بآرائه التثليثية، ولولا ما أبداه بعض العلماء الغربيين من اهتمام كبير بوثائق قمران، وإصرارهم على تصويرها والاطلاع عليها، وتصديهم لدراستها بتأن ملحوظ، وبقدر كبير من الموضوعية والحياد، لنجح اليهود فى إخفائها تظاهرهم الكنائس المسيحية على اختلافها.

والملاحظ أن لفائف البحر الميت تم العثور عليها فى أحد عشر كهفاً من تلك الكهوف التى توجد فى منطقة (خربة قمران) مما يدل على أن أعضاء هذه الطائفة، بعكس الطوائف الأخرى من اليهود، اعتادوا استخدام الكهوف، سواء

للإقامة فيها، أو لوضع وثاقهم الهامة، وقد تبين من فحص اللفائف أنها تنقسم إلى ثلاثة أبواب:

أولاً: نصوص العهد القديم كلها (التوراة) ما عدا سفر (استير).

ثانياً: كتب من العهد القديم يبدو أنها لا تتفق مع الأفكار المسيحية مما جعل العلماء الذين اطلعوا على الوثائق، وكلهم من المسيحيين أو من اليهود يدعون أنها منحولة (١٨).

ثالثاً: مخطوطات جماعة قمران نفسها وتضم: شريعة الجماعة، ونصوصاً لصلاتهم، صلوات المغرب والفجر لكل أيام الشهر، وقد تبين أن هذه الجماعة كانت تصلى جميع الأوقات التى يصليها المسلمون الآن، كما وجدت تفسيرات للتوراة، وتقويم شمسى كانوا يتبعونه فى قمران بدل التقويم القمرى الذى يعمل بموجبه اليهود وكهنة الهيكل.

ولعل وجود تقويمين أحدهما قمرى، وهو الذى كان اليهود يتبعونه ولا يزالون، وآخر شمسى هو الذى كان يتبعه الآسينيون، يفسر لنا لماذا أضاف الله تعالى فى القرآن الكريم تسع سنوات بعد الثلاثمائة عندما قال فى القرآن:

﴿ وَلَبِثُوا۟ فِى كَهْفِهِمْ ثَلَٰثَ مِا۟ئَةٍ سِنِينَ وَٱزْدَادُوا۟ تِسْعًا ﴾ (١٩).

فليس المقصود بذلك الفرق بين السنين الميلادية والسنين الهجرية كما قال بعض المفسرين، أو حتى السنين طبقاً للتقويم القمرى الذى كان العرب يطبقونه حتى قبل الإسلام، وإنما المقصود هنا هو التقويم اليهودى الذى كان عامة اليهود يطبقونه ولا يزالون، فهو يزيد بمقدار تسع سنوات عن حساب المدة التى لبثها الفتية فى الكهف طبقاً للتقويم الشمسى الذى كانت طائفة قمران تأخذ به، وهذا وجه من وجوه الإعجاز فى القرآن الكريم، أراد الله أن يفحم به اليهود الذين لم يكن هناك سواهم يعرف هذا الاختلاف، وكذلك الكنيسة المسيحية التى كشف (آليجرو) المأزق الذى واجهته فى أول نشأتها نتيجة لاختلاف الأعياد اليهودية التى تعترف بها مسيحية بولس مع التقويم القمرى الذى كان مطبقاً أيام المسيح، وكيف قام

---

(١٨) يوسف درة حداد، المرجع السابق، صفحة ٦٠٦.

(١٩) سورة الكهف، الآية ٢٥.

كتاب الأناجيل بإحداث تعديل أو قل تزوير فى التاريخ الذى ادَّعَوْا أن المسيح احتفل فيه بعيد الفصح، وهكذا نجد أن الرد الذى جاء به القرآن الكريم على سؤال اليهود، بواسطة مشركى قريش، عن الفتية الذين ذهبوا فى الدهر الأول جاء مشتملاً على أسرار يهودية صرفة لا يعرفها غيرهم، أو بالأصح لم يكن أحد غيرهم يعرفها حتى جرى الكشف عن كهوف قمران والعثور على ما كان فيها من لفائف.

وقد استمر البحث فى موقع قمران حتى عام ١٩٥٦ حيث أجريت بعض الحفائر التى أسفرت عن نتائج فى غاية الأهمية، فقد أمكن أخيراً إماطة اللثام عن هذه المستعمرة الغامضة التى كان يعيش فيها الآسينيون، وتدل العملة العديدة التى وجدت فى الموقع على أنه كان مسكوناً خلال فترة تمتد تقريباً من القرن الثانى قبل الميلاد حتى الحروب اليهودية (الأعوام من ٦٠ إلى ٧٠ ميلادية). ولكن هناك اختلاف بين المؤرخين حول تاريخ ظهور هذه الطائفة، نظراً لوجود أحد الأسفار المنسوبة إليها والذى اختلف المؤرخون بشأنه (ايسفلت) يرى أن هذا السفر ألف حوالى عام مائة قبل الميلاد، فى حين يرجعه (أولبرايت) إلى بداية القرن الثالث قبل الميلاد. فى حين أن (زتلين) Zeitlin يرجعه إلى القرن الخامس قبل الميلاد (٢٠). ولكن الثابت بعد ما أجرى من دراسات على اللفائف التى تم العثور عليها أنها ترجع إلى القرن الثالث قبل الميلاد وإن كان ليس من المستبعد أن يرجع تاريخ نشأة الطائفة إلى ما قبل ذلك بقرن أو قرنين، وهو ما يتفق مع ما قاله (زتلين).

ويضم المستوطن الآسينى، كما هو واضح الآن: صوامع الغلال، وحوانيت، وفرناً للخبيز، ومصبغة ومغسلاً، ومحلاً لصناعة الفخار، كما يضم كثيراً من الأحواض، والقنوات التى تصل فيما بينها، وبإيجاز نجد فى المستوطنة كل ما هو لازم للحياة المادية لمجتمع صحراوى منعزل، يعيش بعيداً عن أى مركز حضارى، الأمر الذى يضطره لأن يعمل على توفير ما يحتاج إليه للعيش والبقاء، ولم يكن فى استطاعة أعضاء هذه الجماعة العيش فى المنشأة القائمة فوق هذه الرحبة من الأرض، التى تخلو من المهاجع وغرف النوم؛ إذ كانت مخصصة لطقوس الجماعة،

---

(٢٠) سبينو موسكاتى، الحضارات السامية القديمة، صفحة ٣٨١.

ولهذا لا شك أنهم أقاموا على مقربة منها فى أكواخ وخيام، وكذلك فى الكهوف المتناثرة فى الجبل القريب منها.

قصة طائفة قمران:

مما ورد فى لفائف البحر الميت أن الآسينيين قادهم المعلم الصالح إلى منطقة قمران، بعد أن أصابهم الاضطهاد من عامة اليهود، بسبب معتقداتهم، حيث عاشوا منذ حوالى سنة ١٤٠ قبل الميلاد إلى أن تم تدمير موقع قمران نتيجة لحدوث زلزال شديد سنة ٣١ قبل الميلاد.

ومن حسن حظهم أنهم لم يصابوا بخسائر كبيرة فى الأرواح نتيجة لهذا الزلزال، حيث أن الملك هيرود الكبير (حكم بين ٣٧ و٣٤ق.م) كان قد سمح لهم بالعودة إلى القدس قبل وقوع الزلزال بعدة سنوات، فعاد عدد كبير منهم، إلا أنه بعد موت (هيرود) ازدادت الضغوط ضد الآسينيين، فعادوا إلى البرية وعمروا موطنهم القديم فى قمران، حيث بقوا مقيمين به إلى سنة ٦٨ ميلادية.

والواقع أن عداء الطوائف اليهودية لهذه الطائفة لم يكن سببه اعتناق أفرادها كلهم أو بعضهم للنصرانية بعد ظهور المسيح، وإنما هو عداء يرجع إلى القرن السابق على الميلاد، كان السبب فيه أن زعيم هذه الطائفة كان عدواً لدوداً للكهنوت اليهودى الرسمى الذى كان الزعيم يعيب عليه فجوره وازدراءه للناموس، وقد جاهر بعدائه لليهودية الرسمية، وخدمة الهيكل التى اعتبرها فاسدة، وقد انضم إليه الكثير من الأحبار والعلمانيين، واعتنقوا مذهبه فى التشيع، وأقام هذا المعلم فى معتزل قمران يحف به أنصاره من المؤمنين حيث أنشأ مجتمع العهد الجديد، وكان على هذا العهد أن يمثل، بالمقارنة مع «الضالين» وهو الاسم الذى أطلقه على المجتمع اليهودى الرسمى، إسرائيل الحقيقية إسرائيل الرب. ومثل هذا المصطلح، الذى كان بطبيعة الحال هدفاً لأحقاد السلطات اليهودية، شجب ردتهم وضلالهم، فلم يكن منهم إلا أن واجهوه فى عنف، وتصف وثائق قمران فى مواضع كثيرة الاضطهاد الدموى الذى وقع على الطائفة بأنه اضطهاد «بالسيف» انتهى بالقبض على المعلم ومحاكمته وتعذيبه، وربما انتهى الأمر بإعدامه أيضاً (٢١).

(٢١) المرجع السابق، صفحة ٩٨.

وإذا كان ذلك قد حدث فمن المحتمل أن يكون حدوثه بين عامى ٦٧ و٦٣ قبل الميلاد، وقد انتهى الخلاف بين هذه الطائفة وبين اليهود إلى طرد أفرادها من أورشليم، فانسحبت إلى مدينة بللا Pella الصغيرة وراء نهر الأردن، حيث أقامت إلى أن ظهر المسيح عليه السلام، فآمنت به بشراً رسولاً، وأقامت كنيسة مسيحية يهودية تضم اليهود الذين آمنوا بالمسيح رسولاً، واعتزلت كنائس اليهود المنكرين للمسيح، وأقامت شرقاً حيث تحرم الإقامة على سائر اليهود، وظلت ردحاً من الزمن لا هى إسرائيلية خالصة، ولا مسيحية خالصة (٢٢).

أما (آليجرو) فإنه يقول عن طائفة قمران إن بداية ظهورها كانت أثناء حكم (جون هيركانوس) John Hyrcanus (١٣٥ ــ ١٠٤ق.م) أو بعده بقليل، وإن نهايتها العنيفة والسريعة كانت قبل تدمير أورشليم عام ٧٠ ميلادية، أما ما بين هذين التاريخين من تفاصيل، فإنه يمكننا أن نستوفيها بالاستعانة ببعض التعليقات التوراتية التى وجدت فى مكتبة قمران، وهى على درجة كبيرة من الأهمية، والتى تبين منها أن الجماعة كانت تؤمن، وهو ما افترض أن المعلم نفسه قد قاله، أن قائدها قد تلقى أمراً من الله بجمع بعض كهنة أورشليم معاً وأخذهم إلى الصحراء، باعتبارهم جماعة من المؤمنين يرتبط أفرادها بعضهم ببعض بقوة، والغرض من ذلك هو أن يظلوا أنقياء غير ملوثين أثناء تلك الفترة التى سادها الارتداد عن العقيدة الصحيحة، وإلى أن يجىء ملكوت الله، وليس هناك شك فى أن روح الوحدة التى أضاءت كتابات الطائفة، والصرامة والدقة التى تميز بها النظام الذى وضعته لنفسها، تدل على التأثير القوى لشخصية القائد أو المعلم، الذى توفرت بيانات مختلفة بشأن ما أصابه من اضطهاد على يدى شخص آخر يرمز إليه فى الغالب بأنه الكاهن الشرير، ومن تعليق هام على كتاب ناحوم، عثر عليه بين وثائق قمران، يمكن أن نستنتج أن هذا الكاهن الشرير هو الذى أشير إليه بالاسم لمستعار «أسد الغضب» The Lion of warth، وليس من الصعب أن نلاحظ التطابق بين هذه الصورة وصورة الكاهن ــ الملك اليهودى ألكسندر جانيوس Alexander Jannaeus الذى حكم فى الفترة الواقعة بين عامى ١٠٣ و٧٦ق.م، وقد سبق اكتشاف هذا التعليق ما أبداه بعض الدارسين من ملاحظات

(٢٢) العقاد المرجع السابق، صفحة ١٤٤.

تبين منها أن هذا الطاغية تتوفر فيه خصائص مضطهد هذه الطائفة.

ومما ذكرته وثيقة دمشق يتبين أنها وصفت المكان الذى نفيت إليه الطائفة فى أول ظهورها بأنه «دمشق»، وأن ذلك كان بعد النبى (عمواس) Amos وربما النبى زكريا، وفيما يتعلق بنظام الجماعة فقد عثر على وثيقة تكاد تكون كاملة وجدت فى مكتبة قمران، تسمى نظام الجماعة، أو كما أصبحت تعرف بعد أن ترجمها أحد الدارسين الأمريكيين «أبجدية النظام». كما تبين أن لهذه الوثيقة ملحقين اثنين، أحدهما عنوانه: نظام كل تجمع إسرائيلى فى الأيام الأخيرة، والثانى مجموعة منح البركة Benedictions وكلا الوثيقتين: الأبجدية ووثيقة دمشق تشيران إلى كتيب آخر يسمى كتاب التأمل Book of Hagi كان قد وضعه قائدا الطائفة ليتعلمه الأعضاء من الشباب.

وكان من مبادئهم العيش معاً فى جماعة مشتركة، يسودها التواضع العادل والصدق والحب المخلص، والاعتبار الصحيح لكل زميل فى المجلس المقدس، وكانوا يرددون دائماً أنه «لن يكون للأنانية مكان فى جماعتنا» و«لن يستمر إنسان فى معاندة قلبه بارتكاب الإثم بعد أن ملك إرادته وبصيرته وعرف هدفه» وكانوا يتناولون وجباتهم جماعة ويغنون صلواتهم معاً، وعندما يصبح أحدهم عضواً كامل العضوية فى الطائفة، فإنه يخلط ممتلكاته الدنيوية بممتلكات الطائفة، ويحتفظ فقط بحاجاته الضرورية كالثياب.

وقد سبق أن ذكرنا ما قاله الأستاذ العقاد عن طائفة الآسينيين من أنها كانت تطبق نظام الملكية الجماعية، وكان مبدؤهم: «أن المرء يحيا بالمشاركة مع الإخوة ــ فمعاً سوف يطعمون، ومعاً سوف يتعبدون، ومعاً سوف يتذاكرون» (٢٣).

وعلى خلاف ما ذكره العقاد من أن هذه الطائفة لم تكن تؤمن بالرئاسة ولا بالسلطة، فإن المؤرخ يوسفيوس يقول: إن مبدأ الطاعة العمياء كان يحكم المجتمع الآسينى «فهم لا يفعلون شيئاً بغير أوامر من رؤسائهم» ولذلك كانوا حريصين على أن يكون لكل جماعة منهم رئيس، وكانوا يطلقون على هؤلاء الرؤساء اسم

---

(٢٣) اندريه ديبوسومير، المشاكل الخاصة بلفائف البحر الميت، مجلة ديوجين، مصباح الفكر العدد ١٨، السنة السادسة ١٩٧٢، صفحة ٨٤.

(مباقر) بالعبرية ومعناه (المفتشون) وتصف وثيقة دمشق حدود اختصاصاتهم فى عبارات مسهبة، ومثل هذه الجماعة الدينية مثل جيش يخضع لنظم صارمة، تبلغ درجة فريدة من الكمال، ويُحدد كل من الإخوة فى قائمة المليشيا برقم معين يتفق ومكانته فى الجماعة، ويتم تحديد هذا الرقم كل عام فى الاجتماعات العامة للطائفة، وعلى كل فرد أن يطيع طاعة عمياء من هو أكبر منه سنا وأعلى منزلة، وكل آسينى يؤدى عمله، ويستعد دائماً للجهاد فى سبيل الله. وكان الهدف الرئيسى للآسينى هو الطهر والقداسة، والمعركة التى يخوضها أولاً وأخيراً معركة روحية.

وكانوا شديدى الإيمان بالله الواحد، وبالقضاء والقدر، وبالبعث والحساب، وبالثواب والعقاب، وكان نظام الكنيسة الآسينية يفرض على أعضاء الطائفة أن يتحد كل عضو من أعضائها الذين يكرسون أنفسهم للمثل العليا المقدسة المطلقة مع الآخر، بواسطة الإحساس الرقيق، الذى لا يأتيه الباطل، ولابد أن يكون لهؤلاء جميعاً قلب واحد وروح واحدة.

وكان أعضاء هذه الطائفة يتسمون بكثير من الفضائل، منها التخلى عن البهجة، والالتزام بالعفة، وازدراء الغنى، وتوقير الفقر، وحب الصدق، وبغض الكذب، وبالحياء، والتواضع والرحمة والصبر والتوبة. وتمتدح الكتابات المختلفة هذه الفضائل الجوهرية فى كل موضع، فتقرأ فى سفر الأحكام «لن أفعل الشر لأى مخلوق، وسوف أسعى من أجل خير كل إنسان» وفى فقرة أخرى «روحى لن تشتهى الغنى.. ومن شفاهى لن يسمع أى إنسان أى بهتان أو رياء أو كذب». ويصفون أنفسهم بأنهم فقراء (أبيونيون) كما عرفوا فى الفترة اللاحقة لوفاة السيد المسيح، ولذلك قيل عنهم فى جلاء: إن طائفتهم كانت «محفل الفقراء» (٢٤) وكان لهذه الطائفة زعيمان أو رئيسان: المفتش الكاهن ويسمى بالعبرية (paqid) والمراقب أو الناظر أو المشرف overseer ويسمى بالعبرية (medaqqer) وكانت الواجبات اليومية دينية أساساً، وتشمل الاختبارات الروحية للدارسين أو الطلبة أو التلاميذ الذين يرغبون فى الحصول على عضوية الجماعة، وكان المراقب العام مسئولاً عن الشئون الإدارية مثل العمل والميزانية،

(٢٤) المرجع السابق، صفحة ٩٤.

وكان هناك مراقب فى كل خيمة يضم إلى جانب واجباته التنفذية الإرشاد وتكوين التلاميذ، وإعدادهم للدخول فى العضوية، وهذا المزج المثير للفضول والعجيب بين الواجبات الإدارية والدينية، قد وجد مرة أخرى فى وظيفة episkopos أو الأسقف Bishop فى الكنيسة المسيحية الأولى.

ومن بين واجبات المراقب إدارة جلسات المجمع، وكان من تعاليمهم فى الاجتماعات: أن يجلس كل رجل فى المكان المخصص لمن هم فى درجته أو مكانته، فيجلس الكهنة أولاً، يليهم الأعضاء الأصغر، ثم بقية الناس حسب درجاتهم المقررة، وبهذا النظام يكون لهم أن يوجهوا الأسئلة المتعلقة بالقرار الذى يراد اتخاذه، وعلى كل رجل أن يعرض على المجلس ما يتوفر لديه من معلومات تهم الجماعة، ولا ينبغى أن يقاطع أى رجل زميله أثناء حديثه، كما يجب ترك أى رجل يتخطى وضعه من أجل أن يتكلم، ومن يطلب الكلام ينبغى أن يدعى للكلام فى دوره، وفى اجتماع المجلس لا يجب ترك أى رجل ليقول ما من شأنه تكدير الجماعة، أو أن يتكلم بدون أن يتلقى الإذن بذلك من المراقب، وإذا رغب أى رجل ليس فى وضع يسمح له بالتحدث أن يتكلم، فإنه يجب أن يقف على قدميه ويقول: «لدى شىء أقوله للجميع» فإذا ناداه المراقب كان له أن يتكلم.

وكان الالتزام بهذا النظام دقيقاً بحيث إن أى انتهاك له، وهو أمر لا يمكن تصوره، كان يترتب عليه توقيع عقوبة قاسية على العضو المخالف.

وكان من أهم ما كشفت عنه لفائف البحر الميت أو كما تسمى أحياناً لفائف قمران، ذلك التماثل الواضح بين لغة الآسينيين الأدبية، ولغة إنجيل يوحنا، مما جعل كثيراً من المهتمين بدراسة المسيحية يرون أن يوحنا، وهو أحد الحواريين، قد نقل عن الآسينيين جزءاً هاماً من إنجيله،وقد دعم هذا الرأى أن يوحنا كان قد تتلمذ على النبى يحيى (يوحنا المعمدان) قبل ظهور المسيح وانضمامه إليه، وقد قيل: إن النبى يحيى نفسه كان من الآسينيين، وإن كان قد اختلف معهم فى مسألة التعميد، على ما سبق أن بينا، فهناك أكثر من دليل على أنه كان منهم، ومن بينها وحدة الفكر والتعبير.

ولكن المعارضين لهذا الرأى (٢٥) حاولوا أن يدحضوه بأن ساقوا بعض الأدلة المضادة التى استمدوها من إنجيل يوحنا، وفى مقدمتها أنه على خلاف الآسينيين كان يؤمن بالمسيح الإله، وليس المسيح البشر الرسول كما كانوا يعتقدون، وفات هؤلاء المعارضين أن ما يسمى بإنجيل يوحنا لم يكتبه يوحنا نفسه، وإنما كتبه غيره ممن جاءوا بعده بوقت ليس بالقصير، مما يرجح أن يكونوا قد أضافوا إليه ما قيل عن إيمانه بالمسيح الإله، وهى الفكرة التى لم تظهر إلا على يدى بولس، والتى ثبت بالدليل القاطع أنه لا المسيح ولا النبى يحيى من قبله أو أحد من الحواريين قالها.

أهمية وثائق قمران:

فى سنة ١٩٣٩ كتب أحد الدارسين النصيين الكبار وهو سير فردريك كنيون Sir Frederick Kenyon يقول: «فى الحقيقة أنه لا يوجد أى احتمال للعثور على مخطوطات من النص العبرى للتوراة يرجع تاريخها إلى الفترة السابقة على تكوين النص الذى نعرفه باسم (الماسورى) Massoretic» ويقول (آليجرو) (٢٦) إنه من دواعى السرور أن سير فردريك عاش حتى رأى قوله هذا يتعرض للدحض بصورة عجيبة فى عام ١٩٤٨. ويضيف إلى ذلك قوله: «وللحقيقة فإنه بواسطة ما تم العثور عليه فى كهف قمران أمكننا أن نخترق «سد الماسورية». فقد أتاحت هذه المخطوطات الحصول على نصوص يرجع تاريخها إلى ما قبل القرن الثالث قبل الميلاد، فيسرت بذلك ظهور بعض الأفكار ذات المغزى بالنسبة للمستقبل النقدى لنصوص العهد القديم، وربما يجب علينا، على حد قول آليجرو، أن نقوم من جديد بترتيب بعض الحقائق الأساسية بشأن انتقال الإنجيل، والترجمات المختلفة له. فهذه الترجمات التى اعتبرت قياسية Standard translation للعهد القديم استندت تقريباً إلى مخطوطات متأخرة لا ترجع إلى أبعد من القرنين التاسع أو العاشر الميلاديين، فى حين أن الكتاب المبكر جدًّا للشريعة البروتستانتية Protestant Canon كان قد كتب فى القرن الثالث قبل الميلاد، وهذه الفجوة الهامة يمكن أن تلقى الشك على صدق النص المطبق، ولا يقلل من

---

(٢٥) يوسف درة حداد، المرجع السابق، صفحة ٦١٤.

(٢٦) op.cit, p. 59

هذا الشك تلك العناية غير العادية التى بذلها المؤلفون اليهود، الذين نقلوا كتاباتهم المقدسة، فهم قد اهتموا بالشكل أكثر من اهتمامهم بالموضوع،فالتزموا بالقواعد التى اشتملت عليها الأعمال التلمودية، والخاصة بالإجراء الذى يجب اتباعه عند نسخ الكتب المقدسة وبالذات القانون Canon والكتب الخمسة الأولى (الأسفار الخمسة) من التوراة، وكان السبب الذى دفع اليهود إلى اتخاذ هذا الموقف هو تدمير مركزهم الحياتى والثقافى فى أورشليم التى دمرت عام ٧٠ ميلادية. مما جعل المراقبين الدينيين فى هذه المرحلة التى سميت مرحلة التشتت يركزون أكثر فأكثر على القانون Canon وعلى الأسفار الخمسة الأولى من التوراة، واعتبروا أنها قد حلت محل المعبد كمركز لليهودية، كذلك فإنه أصبح ضرورياً، من وجهة نظرهم، لوحدة الإيمان أن يكون النص التوراتى قياسيًّا، وأن يكون من المرونة بحيث يجرى تنقيحه إلى الأفضل، تجنباً لوجود أى اختلافات خطيرة.

وانعقد المجمع اليهودى Synode فى جامينا Jamina بالقرب من يافا ما بين عامى ٩٠ ومائة ميلادية، حيث نوقشت بعض المسائل الخاصة بإمكانية قبول بعض الكتب التى كانت قد انتشرت بين اليهود، وفى هذا الوقت أيضاً، وإلى جانب التوسع فى الشريعة Canon، جرى الاتفاق على تنميط النص (أى جعله نمطيًّا) الذى اعتبر قياسيًّا وذلك بعد الموافقة عليه، وربما اتفق أيضاً على وجوب إضافته إلى ما سوف يكتب من نسخ فى المستقبل، وبالغ اليهود فى الاهتمام بالشكل إلى الحد الذى جعلهم يقررون قواعد ملزمة لمن ينسخ التوراة مثل المسافة بين السطور، وحجم الأعمدة والمسافات التى بين الكلمات والجمل، ولون ونوع الحبر المستخدم فى الكتابة، وشكل الأغلفة، وغير ذلك مما جرى تحديده والإلزام به فى كل زمان مكان.

لذلك فإنه ابتداء من نهاية القرن الأول الميلادى تحدد النص القياسى للتوراة، وجرى الحفاظ عليه إلى الآن مع بعض الاختلافات التى تتفاوت فى الأهمية، ومع ذلك يمكن القول: إن مجمع جامينا لم يقم بتكوين نص قياسى، بل إنه لم يقم بعمل ترجمة انتقائية من ترجمات كثيرة، وكل ما فعله أنه اختار نصًّا معينا من بين عدد من النسخ التى كانت شائعة فى الجماعات اليهودية فى وقت سابق، واعتبره قياسيًّا لكل زمان؛ ولذلك فإن نسخة التوراة التى وجدت فى مكتبة قمران تتميز

بأهمية خاصة، كما أن الدليل المستمد منها يكتسب قيمة خاصة هو الآخر.

ويسمى النص الذى اختاره مجمع جامينا ليكون هو النص القياسى بـ(الماسورى) Massoretic وهو النص الذى يقف وراء الترجمات الإنجليزية لما يسمى بالعهد القديم. وتوجد فضلاً عن التوراة الماسورية والتى يشار إليها اختصاراً بالحرفين (AT) الترجمة اليونانية للتوراة، أو مايسمى بالنسخة السبعينية Septuagint والتى يشار إليها اختصاراً بالحروف (Lxx) والتى تعتبر أكثر نسخ التوراة أهمية، وتوجد فى الكتب المقدسة التى ترجع إلى الأزمنة المسيحية المبكرة جدًّا، وتحتوى على أعمال اعتبرها آباء الكنيسة الأوائل جزءاً من الكتابات المشكوك فى صحتها أو فى صحة نسبتها إلى من تعزى إليهم من المؤلفين، مما جعلهم يستبعدونها (وهى أربعة عشر جزءاً أو سفراً تلحق أحياناً بالعهد القديم من الكتاب المقدس، ولكن البروتستانت لايعترفون بها ويسمونها الابوكريفا Apocrypha الإنجليزية) وترجع قصة هذه الترجمة المسماة بالسبعينية إلى القرن الثالث قبل الميلاد عندما سافر عدد من الدارسين اليهود إلى مصر أثناء حكم بطليموس فلادلفيوس (٢٨٥ ــ ٢٤٦ق.م) حيث أخذوا إلى الإسكندرية، لكى يضعوا نسخة يونانية منقحة للكتب اليهودية المقدسة.

وتروى القصة كيف أن الملك كان قد تناقش مع أمين مكتبته فى هذا العمل، بعد أن سمع عن عجائب هذه الكتب، وكلف أمين المكتبة بالكتابة إلى الحبر الأكبر لليهود فى أورشليم، يطلب منه إيفاد عدد من أحبار اليهود إلى الإسكندرية لكى يقوموا بترجمة التوراة إلى اليونانية، ولبى الحبر الأكبر الطلب وبعث باثنين وسبعين نبيلاً يهودياً، اختيروا من القبائل اليهودية الاثنتى عشرة، بواقع ستة أفراد من كل قبيلة حملوا معهم نسخة من القانون، كتبت فى صحف من الذهب، فاستقبلوا استقبالاً عظيماً تفرغوا بعده لأداء واجبهم، فعملوا منفصلين أول الأمر، ولما انتهوا جميعاً اجتمعوا وأجروا مقارنة بين نتائج عمل كل منهم، وأخيراً أخرجوا الترجمة اليونانية التى أصبحت منذ ذلك الوقت تعرف بالنسخة السبعينية أو ترجمة «السبعين» Seventy.

وكعادة اليهود فى الجنوح إلى المبالغة فقد أضافوا إلى الرواية الكثير من الأمور الغريبة، منها: كيف أن المترجمين اليهود وضعوا فى زنازين انفرادية، أو كل اثنين

معاً فى زنزانة ، فبلغ عددها ستًّا وثلاثين زنزانة ، فوضعوا الترجمة فى اثنين وسبعين يوماً بالضبط ، وأنهم عندما أجروا المقارنة بينها وجدوا أنها يطابق بعضها بعضا ، فاستدلوا من ذلك على أن العمل كان بوحى من الله .

ومع ذلك فإن دراسة هذه النسخة أسفرت عن نتيجة على جانب كبير من الأهمية ، وهى أن الجزء الأول من التوراة المسمى بالقانون ، هو الذى ترجم فى الإسكندرية حوالى ذلك التاريخ الذى ذكر أن الأحبار وصلوا فيه إليها ، وكانوا يحملونه مكتوباً فى صحف من الذهب ، مما يدل على أن المسألة لم يكن فيها وحى من الله أو أى شىء مما زعموه ، أما الكتب الأخرى من العهد القديم فإنها أضيفت فى وقت متأخر بواسطة مترجمين مختلفين ، يوجد بينهم تباين هائل فى الكفاءة وفى الأسلوب ، مما جعل المقياس العام للترجمة غير منتظم .

وأصبحت النسخة السبعينية (Lxx) هى توراة اليهود الذين يتكلمون اليونانية ، ووزعت على نطاق واسع من عالم البحر المتوسط ، وإلى هذه الحقيقة يشير أدموند جاكوب فهو يقول : إنه فى البدء لم يكن هناك نص واحد فقط ، بل كان هناك تعدد فى النصوص ، ففى القرن الثالث قبل الميلاد تقريباً كان هناك على الأقل مدونات للنص العبرى للتوراة . كان هناك النص المحقق (الماسورى) والنص الذى استخدم ، جزئيًّا على الأقل ، فى الترجمة اليونانية ، والنص المعروف بالسامرى (أو أسفار موسى الخمسة) Pentateuque Samaritan (٢٧) .

ومع ظهور المسيحية غير اليهودية Gentile Christianity والتى تتكون من المسيحيين الأوروبيين الذين كانوا يعبدون الأوثان ، ولم يكونوا يهوداً فى الأصل ، أصبحت النسخة اليونانية هى الكتاب المقدس للكنيسة الأولى ، فلما استخدمها اللاهوتيون المسيحيون فيما نشب من منازعات لاهوتية بينهم وبين اليهود ، أنكرها هؤلاء وبدءوا فى إعداد ترجمات يونانية جديدة لتنافس الترجمة السبعينية ، وكانت أكثر هذه الترجمات أهمية هى الترجمة المسماة (أكويلا) Aquila التى وضعت فى منتصف القرن الثانى بعد الميلاد ، ويظهر أنها اعتمدت على النص العبرى المسمى بـ (الماسورية) أكثر مما اعتمدت على الترجمة السبعينية ، وقد استخدم اليهود هذه

---

(٢٧) موريس بوكاى ، دراسة الكتب المقدسة فى ضوء المعارف الحديثة ، صفحة ١٨ .

الترجمة بحماس ملحوظ فى الجدل والنقاش والدرس والتعليم، ومع ذلك فإن استخدامها لم يلق استهجاناً أو احتقاراً من جانب الدارسين المسيحيين أمثال (أوريجن) Origen و(جيروم) Jerome وبعد نصف قرن ظهرت ترجمة (ثيودوتيون) Theodotion وكانت أكثر قرباً من الأكويلا والترجمة الإنجليزية المتداولة الآن، منها إلى الترجمة السبعينية، أما الترجمة الرابعة فقد قام بها (سيماشوس) Symmachus وظهرت بعد وقت قصير من ظهور ترجمة (ثيودوتيون)، وتميز عمل (سيماشوس) بأنه أكثر تحرراً، كما أنه ينتمى إلى النمط الإغريقى.

وفى النصف الأول من القرن الثالث عثر سكندرى يدعى (اوريجن) على ثلاث ترجمات يونانية أخرى للتوراة، كانت موجودة إلى جانب النسخة السبعينية، ولاحظ أن بينها تناقضاً، فعمل من جانبه على وضع ترجمة أقرب إلى الكمال سماها (هكسابلا) Hexapla أو ذات الستة الأقسام Six- foldversions حيث جمع فيها بين ست نسخ للتوراة أفرد لكل نسخة منها عموداً، خصص العمود الأول للنسخة العبرية التى اعتبرت قياسية، وخصص العمود الثانى للنسخة العبرية المترجمة إلى اليونانية. فى حين خصص العمود الثالث للترجمة اليونانية المسماة (اكويلا)، أما العمود الرابع فخصصه لترجمة سيماشوس، فى حين خصص العمود الخامس للترجمة السبعينية بعد أن قام بتنقيحها بنفسه، أما العمود الأخير فخصصه لترجمة ثيودوتيون اليونانية.

وقد لقى التنقيح الذى أجراه (أوريجن) للنسخة السبعينية نجاحاً ملحوظاً أدى إلى تحول الاهتمام من النسخة السبعينية إلى النسخة المنقحة، بل إنه أدى إلى إحداث تغيير كبير فى هذه الترجمة، جعلها تبدو كما لو كانت شيئاً مختلفاً يخص أوريجن ذاته، كما أنه أدى إلى التأثير بشكل ملحوظ فى النص.

ومن هذا البيان المختصر لتاريخ النسخة السبعينية، يتبين أنه كانت هناك جهود كثيرة، الهدف منها جعل هذه الترجمة أكثر تطابقاً مع النسخة العبرية المسماة بـ(الماسورة). ومع ذلك فإنها لم تنجح فى القضاء على الاختلافات التى قامت بين النصين، بل ربما تكون قد أدت إلى إبرازها بشكل أكبر، وكان حلم الدارسين الذين يعملون فى هذا الحقل، هو أن يكتشفوا نصاً عبرياً من نفس عائلة

النسخة السبعينية ، وكانوا يحاولون أن يصوروا لأنفسهم الكيفية التى أدى بها المترجمون اليهود القدماء عملهم ، وما أضافوه من عندياتهم ، وما الذى تركوه ، وأن يختبروا معلوماتهم فى العبرية ، وعلى أى أساس تعاملوا مع الصعوبات الموجودة فى النص .

ولكن تحقيق هذا الحلم كان يحتاج إلى اكتشاف كتب من التوراة ترجع إلى الأيام السابقة على مجمع جامينا ، أو بمعنى أصح ، ترجع إلى الوراء نحو الوقت الذى تمت فيه الترجمات اليونانية كلما أمكن ، وقد ظل تحقيق هذا الحلم أمراً ميئوساً منه إلى أن حل عام ١٩٥٣ ، ففيه اكتشفت لفائف أخرى أسفرت دراستها عن نتائج بالغة الأهمية ، فقد لاحظ (فرانك كروس) Frank Cross أثناء عمله فى الكهف الرابع من كهوف قمران وجود قطع من اللفائف الجلدية تشتمل على كتاب (صمويل) Samuel . وبدراسته تبين له أنه يختلف اختلافاً كاملاً مع النسخة الماسورية ، ولكى يطمئن أكثر قام بمراجعة النص مرة أخرى فتأكد له وجود الاختلاف ، بل ووجود فقرة كاملة فى النص القمرانى لم ترد فى النسخة العبرية القياسية .

وبدأ كروس يرجع إلى النسخ الرئيسية ، فوجد ، تقريباً أن النص الذى عثر عليه يتطابق كلمة بكلمة مع الترجمة اليونانية السبعينية ، وقام كروس بوصل القطع الثمينة من الجلد التى تتكون منها شذرات اللفائف ، وكلما مر الوقت وجد تطابقاً إيجابيًّا مع النسخة السبعينية ، واختلافاً مع النسخة الماسورية ، إلى أن وصل فى النهاية إلى الوضع الذى أصبح فيه قادراً على التأكد من أن أمامه الإجابة عن الحلم الذى طالما راود خيال المهتمين بنقد النص .

وباستمراره فى الدراسة أكتشف أكثر فأكثر أن المخطوطة الثمينة تختلف أحياناً عن النسختين السبعينية والماسورية ، وتتفق أحياناً أخرى مع الماسورية ضد السبعينية ، مما يدل على افتقار النسخ المختلفة للتوراة إلى الضبط الذى هو شرط أساسى لصحتها والثقة فيها ، وقد نشر (كروس) جزءاً من النص الجديد فى شهر ديسمبر ١٩٥٣ وقارن بينه وبين نص النسخة السبعينية ، وأبرز الاختلافات التى توجد فى النصين .

وبعد عامين نشر دكتور كروس بعض الشذرات الأخرى التى تشتمل على أجزاء من كتاب (صمويل) وتعد من أقدم المخطوطات التى تم العثور عليها فى مكتبة قمران حتى الآن، والتى ترجع ــ طبقاً لما يعتقده كروس ــ إلى نهاية القرن الثالث قبل الميلاد، وقد لخص نتائج البحث الحذر لما اشتملت عليه الشذرات الست التى كانت تحتوى على حوالى خمسين كلمة، فتبين أن وثائق قمران تتفق ثلاث عشرة مرة مع النسخة السبعينية ضد النسخة الماسورية، وتتفق أربع مرات مع الماسورية ضد النسخة السبعينية، هذا فضلاً عن الحالات التى اختلفت فيها مع النسختين معاً، فإذا كان هذا القدرمن الاختلاف بين نسخ التوراة قد ظهر فى نص لايزيد عدد كلماته عن الخمسين كلمة، فما هو عدد مرات الاختلاف بين النصوص الكاملة للتوراة فى نسخها المختلفة، وإلى أى مدى يمكن لأى إنسان عاقل أن يثق فى كتاب كهذا لاتكاد نسخة منه تتفق مع الأخرى فى أمر حتى تختلف معها فى أمور، وأى أمور هذه التى يقع فيها الاختلاف ؟! إنها أمور العقيدة المنزلة من الله تعالى، والتى يستحيل تصور اختلافها من نسخة إلى نسخة أخرى مع وحدة المصدر وهو الله. مما يدل دلالة قاطعة على أن الكتاب المتداول الآن والمسمى بالتوراة ليس هو التوراة التى أنزلها الله على موسى عليه السلام، وإنما هو كتاب آخر من وضع الأحبار والتراجمة والكهنة، وكل من سولت له نفسه أن يضيف إليه أو أن يحذف منه بعد أن استباحوا كلام الله.

إن ما كشفت عنه الدراسات التى أجريت على النسخ المختلفة للتوراة، وما أدى إليه الكشف عن وثائق الطائفة الآسينية فى كهوف قمران، وبالذات نسخة التوراة القمرانية التى وفرت أرضاً أكثر رحابة وثباتاً لإجراء المزيد من المقارنات والتحليلات التى أثبتت ــ بما لايدع مجالاً للشك ــ أن اليهود زوروا التوراة وغيروا فيها وبدلوا، كل هذا ليس إلا دليلاً جديداً على الإعجاز القرآنى، وكذب من ادعوا أن الرسول عليه الصلاة والسلام هو الذى كتب القرآن بيده، وادعى أنه أوحى إليه به، أو الذين قالوا إن بعض الكهنة النصارى أو غيرهم هم الذين علموا الرسول ﷺ القرآن، أو على الأقل ما تضمنه من أمور خاصة بعقائد اليهود والنصارى، أما من حيث الإعجاز فذلك لأن القرآن الكريم فضح ما قام به اليهود من تزوير للتوراة، وكيف أنهم كتبوها بأيديهم، وادعوا أنها من عند الله،

وفى ذلك الوقت لم يكن أحد قد عرف هذه الحقيقة، اللهم إلا عدد قليل من الضالعين مع اليهود من أتباع بولس الذين كثيراً ما وجدوا فيما قام به اليهود من أعمال تزوير ما يحقق مصالحهم، ويتفق مع أهوائهم، وأما من حيث الكذب فلأنه لو كان ما ادعوه من أن بعض كهنتهم هم الذين علموا الرسول ﷺ القرآن، أو بعض ما فيه، لو أن ذلك كان صحيحاً لجاء القرآن مثل التوراة، مشوهاً مليئاً بالأكاذيب، ومن باب أولى إذا كان من لقنوه للرسول هم أتباع بولس، وصدق الله العظيم إذ يقول:

﴿ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَٰذَا مِنْ عِندِ اللَّهِ لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا ۖ فَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَّهُمْ مِّمَّا يَكْسِبُونَ ﴾ (٢٨).

بعض النتائج التى أسفرت عنها البحوث التى أجريت على وثائق قمران:

تبين من الدراسة الهامة والقيمة التى أجراها العالم (جون آليجرو) لوثائق البحر الميت، كيف أن من كتبوا الأناجيل استعاروا واقتبسوا الكثير من مبادىء وأفكار وآراء ونظم الطائفة الآسينية، وادعوا أنها مبادىء وأفكار وآراء ونظم مسيحية أصيلة، بل كثيراً ما نسبوها إلى السيد المسيح نفسه. ولولا اكتشاف وثائق قمران لظلت الحقيقة خافية على الناس لا يدرون عنها شيئاً.

وكان من أخطر ما كشفت عنه دراسة اللفائف ما ورد فى نسخة التوراة القمرانية بشأن البشارة بالرسول محمد ﷺ، والذى تبين أن النسخة القمرانية تتفق فيه مع النسخة السامرية، ويأتى بعد ذلك ما كشفت عنه الدراسة من قيام الكنيسة المسيحية الأولى بالاقتباس والاستعارة من الطائفة الآسينية، والادعاء كذباً أنها أمور من إبداعها، وأخيراً فإن الدراسة التى أجرها (آليجرو) أسفرت عن نتيجة ثالثة بالغة الأهمية تتعلق بشخصية السيد المسيح التى يعتقد (آليجرو) أن بولس والآخرين قد بالغوا فى رسمها، وأضفوا عليها أوصافاً اقتبسوها من شخصية (المعلم) وهو زعيم الطائفة القمرانية أو الآسينية، وذلك من أجل أن

(٢٨) سورة البقرة، الآية ٧٩.

يجعلوا من دعوة المسيح عملاً هاماً وخطيراً، فى حين أنه فى الواقع لا يزيد عن أن يكون مجرد دعوة إصلاحية محدودة الأهداف، تقتصر على جماعة من الناس هم اليهود أو الخراف الضالة، فإذا ببولس يحول الأمر إلى دعوة عالمية وألوهية وبنوة لله، وصلب وموت وقيامة وعشاء أخير وطقوس أخذها من هنا وهناك.

أولاً: تبشير توراة قمران بالنبى محمد ﷺ:

لاحظ (آليجرو) فى دراسته لتوراة قمران ومقارنتها بما ورد فى بعض الأناجيل أن هناك تناقضاً بين ما اشتملت عليه هذه الأناجيل من ذكر النبى المنتظر الذى بشر به موسى، وبين ما انتهى إليه الرأى فى الكنيسة منذ أيام بولس من اعتبار السيد المسيح إلهاً وابن إله، وهذا يعنى أنه ليس النبى الذى بشر به موسى عليه السلام، والذى طال انتظار اليهود له كما سبق أن ذكرنا، وقد فسر آليجرو ذكر هذا النبى فى التوراة المعتمدة من الكنيسة، بأنه راجع إلى أن هذه النسخة اقتبست هذه النبوءة من التوراة السامرية التى ظهر أنها تتفق مع التوراة القمرانية التى عثر على نسختها فى مكتبة قمران.

والملاحظ أن (آليجرو) وجه اهتمامه إلى ما أسماه تناقضاً بين تبشير موسى بالنبى الذى سيأتى ليقيم لهم الرب، وبين اعتبار المسيح إلهاً وابن إله، أو بين قول موسى عليه السلام: إن هذا النبى لن يكون من بنى إسرائيل، وبين كون المسيح من بنى إسرائيل، ففى الحالة الأولى لا تنطبق النبوءة على المسيح لأنه ليس نبياً وإنما هو ابن الله، فمن هو إذاً النبى الذى بشر به موسى؟ وفى الحالة الثانية تظل النبوءة معلقة لم تتحقق لأن المسيح من بنى إسرائيل وبالتالى لا يكون هو النبى الذى بشر به موسى. وأشار (آليجرو) إلى الحيرة التى عاش فيها زعماء الكنيسة الأولى الذين لم يدروا كيف يوفقون بين قيام دعوة المسيح على نبوءة موسى، وتبشير يحيى به باعتباره النبى الذى سيقود بنى إسرائيل إلى الخلاص فى حين أن موسى يقول إن هذا النبى لن يكون من بنى إسرائيل.

وإذا كان هؤلاء الزعماء قد وجدوا الحل فيما زعمه بولس من أن يسوع ليس نبياً وإنما هو ابن الله بل إنه إله، فإن حيرتهم لم تنته بلأن نبوءة موسى ظلت بدون تفسير، وإذا كان قد بدا سهلاً الطعن فى التوراة السامرية بالنسبة لما ذكرته عن

النبى المنتظر، فإن الكشف عن التوراة القمرانية والعثور فيها على نفس البنوءة جعل الموقف أكثر تعقيداً، خاصة وأن هذا الكشف جاء بعد أن تحققت النبوءة بالفعل، وبعد أن مضى على تحققها أربعة عشر قرناً لم يحدث خلالها ما يفيد العكس، إذ أنه لم يسبق أن مضت مثل هذه المدة بين نبى وآخر مما يدل على أن ما قاله الرسول محمد بن عبد الله ﷺ من أنه آخر الأنبياء وخاتم المرسلين حق وصدق.

وقد سبق أن بينا كيف أن التوراة العبرية تعرضت للتزوير مرات كثيرة، وأنها فى ترجماتها المختلفة أصيبت بالتغيير والتعديل والحذف والإضافة من جانب المترجمين وغيرهم، مما جعلها غير جديرة بالثقة، ولا تستأهل التصديق، فى حين أن التوراة السامرية لم تتعرض لشىء من هذا، وكذلك التوراة القمرانية وهذا ما اعترف به المتخصصون فى دراسة الكتب المقدسة الذين أولوها ثقتهم، واعتمدوها كمصدر جدير بالاحترام، وفضلوها على ما يسمى بالنسخ القياسية من التوراة، واتخذوها أساساً للمقارنة، وفى هذا الصدد فإن التوراة السامرية تضمنت إضافة هامة إلى نبوءة موسى عليه السلام التى قال فيها: «يقيم الرب إلهك نبيًّا من وسطك من إخوتك مثلى له تسمعون» (٢٩) أضافت قوله: «ولا يقوم أيضاً نبى فى إسرائيل كموسى» وهذا ما لم تذكره التوراة العبرانية مما يدل على أنه حذف مثلما حذف غيره من الأمور التى لم ترق لأحبار اليهود.

وقد وجد هذا النص كاملاً فى التوراة القمرانية، وقد قيل إن هذا معناه أن النبى المنتظر لن يكون من بنى إسرائيل كما كان موسى، وإنما سيكون من بنى إسماعيل (٣٠)، وقيل أيضاً إن ما قصده موسى ليس أنه لن يكون هناك نبى من بنى إسرائيل مطلقاً، ولكنه قصد أنه لن يكون هناك نبى مثله أى محارب كما كان اليهود يحلمون. وهذا هو الصحيح حيث إنه جاء بعده أنبياء كثيرون من بنى إسرائيل آخرهم عيسى عليه السلام، ولكنهم لم يكونوا مثله، أى محاربين، وإنما الذى جاء مستوفياً لشروط النبوءة هو النبى محمد ﷺ فهو ليس من بنى إسرائيل، كما أنه كان محارباً قاد أمته إلى النصر على المشركين والكفار كما فعل

(٢٩) سفر التثنية، الإصحاح الثامن عشر.

(٣٠) الدكتور أحمد حجازى السقا، التوراة السامرية، صفحة ٢٥.

موسى كذلك ، فقد تأكدت النبوءة بما قاله عيسى بن مريم عليه السلام : « إن لى أموراً كثيرة أيضاً لأقول لكم ولكن لا تستطيعون أن تحتملوا الآن ، وأما متى جاء ذاك الروح الحق فهو يرشدكم إلى جميع الحق ؛ لأنه لا يتكلم من نفسه ، بل كل ما يسمع يتكلم به ويخبركم بأمور آتية ، ذاك يمجدنى ؛ لأنه يأخذ مما لى ويخبركم (٣١) .

ثانياً : استعارة الكنيسة الأولى لنظم وآراء طائفة قمران :

كذلك لاحظ (آليجرو) أن الكنيسة عرفت نفسها بأنها « هؤلاء الذين على الطريق أو أصحاب الطريق » أو « طريق الله » وهو ما جاء فى الإصحاح الرابع والعشرين من أعمال الرسل : « ولكننى أقر لك بهذا أننى حسب الطريق الذى يقولون له شيعة ، هكذا أعبد إله آبائى مؤمناً بكل ما هو مكتوب فى الناموس والأنبياء » . وهذا المصطلح نفسه سبق أن استخدمته طائفة قمران ، فهى كما جاء فى تعاليمها تضم « هؤلاء الذين اختاروا الطريق » . وأكثر من ذلك فإن الطائفة ومن بعدها الكنيسة وصفتا نفسيهما بالجماعة الفقيرة ، أو جماعة الفقراء ، وأبناء النور ، والفئة المختارة من الله ، وجماعة العهد الجديد ، وفى الفصل الثامن من الرسالة الإنجيلية بالعبرية نجد أن الكنيسة قد اقتبست تماماً عبارة (جيريميا) Jeremiah فوصفت نفسها بأنها المعبد الجديد لله ، حيث يكون خلاص الناس جميعاً بالفداء أو بتضحية المسيح نفسه ، وبينما تصف جماعة قمران نفسها بالزرع الأبدى وبيت إسرائيل المقدس ، والاجتماع السرى المقدس لأجل هارون ، وشهود الحقيقة يوم الحساب ، والمختارين بفضل الله للتفكير من أجل الأرض ، وليسددوا للشر ما يستحقه من عقاب ، والحائط المبتلى أو الممتحن ، وحجر الزاوية الثمين ، والذين لن تهتز مؤسستهم أو تزول من مكانها ، فإن وصف بطرس للكنيسة يشبه بشكل غير عادى هذه الأوصاف ، فهو يقول : « إنها الحجارة الحية التى أقيم بها بيت روحانى ؛ لتكون كهنوتاً إلهياً ، لكى تقدم التضحيات الروحية المقبولة من الرب بشفاعة يسوع » ولأنها ذكرت فى الكتاب المقدس فهى مدعوة لله ، أى أنه تبناها' Behold ، وهى حجر الزاوية الرئيسى ، المختار من الله ، الثمين .. إن أتباعها هم الشعب المختار أو الجنس المختار Race ، وجماعة الكهنة الملكية (نسبة

(٣١) انجيل يوحنا ، الإصحاح ١٦ .

لهارون)، والأمة المقدسة، وشعب الله.

وكما كانت طائفة قمران تحكم نفسها حكما ديمقراطيًا بواسطة المجالس التى كانت تقوم بالمداولة، فإن الكنيسة استخدمت بدورها هذا المصطلح فى العهد الجديد، حيث تصور المشاهد الواردة فيه كيف أن كل الأمور كانت تعرض على الشعب ليبدى رأيه فيها، ففى سفر الأعمال (٣٢). «سكت الجمهور كله، وكانوا يسمعون برنابا وبولس يحدثان بجميع ما وضع الله من الآيات والعجائب فى الأمم بواسطتهم». كذلك عندما ترك الحواريون للتلاميذ أن يحددوا السبعة الذين يقومون بالخدمة «فى تلك الأيام إذ تكاثر التلاميذ حدث تذمر من اليونانيين على العبرانيين أن أراملهم كن يغفل عنهن فى الخدمة اليومية، فدعا الاثنا عشر جمهور التلاميذ وقالوا لا يرضى أن نترك نحن كلمة الله ونخدم موائد، فانتخبوا أيها الإخوة سبعة رجال منكم شهدوا لهم ومملين من الروح القدس وحكمة فنقيمهم على هذه الحاجة، وأما نحن فنواظب على الصلاة وخدمة الكلمة، فحسن هذا القول أمام كل الجمهور فاختاروا استفانوس رجلاً مملوءاً من الإيمان والروح القدس وفيليبس وبروخورس ونيكافور وتيمون وبرميناس ونيقولاوس» (٣٣). وعند تشكيل مجلس كنيسة أنطاكية: «فهؤلاء لما أطلقوا جاءوا إلى أنطاكية وجمعوا الجمهور ودفعوا الرسالة» (٣٤). كذلك لوحظ أن هيئة مكتب الكنيسة وعلى رأسه الأسقف أو المطران له أصله فى نظام المراقب Overseer عند طائفة قمران.

ثالثاً: اقتباس الكنيسة لوظائف (المعلم) وإضفاؤها على المسيح:

كذلك اقتبست الكنيسة من طائفة قمران ما كانت قد طبقته من نظام يجمع فى شخص (المعلم) بين السلطتين الدينية والزمنية أو العلمانية، أى سلطة الحكم، فإلى ما قبل سقوط الثيوقراطية القديمة لإسرائيل كانت السلطتان الروحية والزمنية فى يدى الكاهن الأكبر، وبزوال الاستقلال اختفى وصف المليك وبقى وصف الكاهن وحده، حيث آل الملك إلى الرومان الذين احتلوا فلسطين، وفى

---

(٣٢) الإصحاح الخامس عشر الفقرة رقم ١٢.

(٣٣) أعمال الرسل، الإصحاح السادس، الفقرة من ١ إلى ٥.

(٣٤) أعمال الرسل، الإصحاح الخامس عشر، الفقرة رقم ٣٠.

عهد الهسمونيين ، لما عاد الملك إلى اليهود ، انتحل الكاهن الأكبر وصف الملك وعد ذلك عملاً من أعمال اغتصاب العرش ، صدم الورع الإسرائيلى فى ذلك الوقت ، وعلى أى حال فإن فكرة ازدواجية الإدارة المسيحية استمرت على الأقل إلى زمن الثورة الثانية (٥ ــ ١٣٢ ميلادية) يدل على ذلك ما لوحظ على نقود ذلك الوقت من وجود اسم (العازار) الكاهن الأكبر جنباً إلى جنب مع اسم (سيمون باركوشيبا) أمير إسرائيل . ولقد قضت طائفة قمران على هذه المشكلة عندما جمعت فى شخص المعلم بين السلطة الدينية والسلطة الزمنية ، وهو ما اقتبسه أصحاب الأناجيل حيث جمعوا فى شخص المسيح بين السلطتين ، فلما نشأت الكنيسة ادعت لنفسها هذا الحق واستندت إليه فيما بعد لفرض وصايتها على الملوك والحكام باسم المسيح .

ويقول (آليجرو) : إن بعض النتائج التى أسفرت عنها دراسة اللفائف التى خلفتها طائفة قمران أزعجت المسيحيين ؛ لأنها كشفت عما فى المسيحية من تناقض ناشىء لا عن الاختلاف الشديد بين شخصيتى معلم الطائفة التى كانت تقيم فى قمران ، وبين المسيح وحسب ، بل عن الاختلاف الأهم بين عالمين من الفكر جد متباينين ، فمن ناحية كان المعلم قائداً كهنوتيا لطائفة يهودية متطرفة نرى صورته من خلال عيون أتباعه ، ومن ناحية أخرى كان يسوع حاخاماً أو حبراً يهودياً تغيرت صورته بواسطة الكتابات اليونانية للكنيسة غير اليهودية ، التى أصبحت لها السيطرة ، لكى تجعل منه ومن رسالته شيئاً يمكن قبوله من جانب عالم غير اليهود Gentile World الذى أصبح يمثل كتلة المسيحية الرئيسية .

ويستطرد قائلاً : « والحقيقة أننا نعرف قليلاً جدًّا عن الرجل المسمى يسوع ، وعن خلفيته التاريخية والكلام المنسوب إليه فى العهد الجديد ، يظهر فى ترجمته خارج السياق غالباً ، وضمنياً بشكل كامل وغير مباشر ، وخاص بعالم مفقود للطائفية اليهودية ، ولا نزال إلى الآن نلقى صعوبة فى التعرف عليه ؛ ولذلك فإن القراء يمكنهم أن يدركوا ، أنه بالنسبة لما نحن عليه حاليًّا من جهل ، ليس من السهل أن نحدد مكان « يسوع » فى العالم اليهودى الذى كان قائماً فى أيامه ، ومدى العناء الذى سيصيبنا إذا أردنا أن نلقى الضوء على خلفيته الدينية . ويمكن أن نفترض بالتأكيد ، أنه كان ملماً بمذهب الطائفة الآسينية ، منذ أن انتشرت فى

فلسطين، وكما رأينا، فإن بعض اللفائف ظهر أنها تتطابق مع الآسينية الحضرية (التى كانت تنتشر فى الحضر) أكثر مما تتطابق مع الحياة القائمة على الزهد فى قمران، ومهما يكن فإنه لا يمكن التغاضى عما كان قائماً من اختلافات بين هذين الفرعين للحركة (الآسينية والقمرانية) وأن نأخذها بعين الاعتبار.

والراجح أن «يسوع» كان قد اطلع بشكل جيد على نظام وفكر الآسنيين فى المدن والقرى، أكثر من اطلاعه على نظام وفكر طائفة قمران، ومع ذلك فإننا ما زلنا نحتاج إلى معرفة كم أكبر من المعلومات عن الآسينية الحضرية قبل أن نؤكد على الدرجة من القوة التى كانت عليها العلاقات التى ربطت «يسوع» بهذه الشيعة؛ وبقدر ما نالت التفاصيل الواردة فى العهد الجديد والتى تسجل لحياة «يسوع» من اهتمام، فإن اللفائف تقدم مصدراً إضافيًّا للاعتقاد بأن أحداثاً كثيرة نسبت إلى «يسوع» لم تزد فى الأصل عن أن تكون مجرد تصور لما كان متوقعاً أن يكون عليه المسيح، وأنها لم تقع فعلاً، وبالتالى فإنها ليست جزءاً من تاريخ «يسوع» (٣٥).

إن الإنجاز الرئيسى الذى قدمته لفائف البحر الميت للفكر الحديث، هو أنها نبهتنا إلى مدى الجهل الذى كنا نعيش فيه بشأن الأحداث والآراء الخاصة بالطائفة اليهودية فى بداية التاريخ الميلادى، ولا شك أن الضوء الذى ألقته على تلك الفترة الصليبية فى تاريخ الإنسان، أدى إلى امتداد بعض الضوء إلى فترة أخرى كان الظلام فيها يكاد أن يكون شاملاً، فهى على الأقل قد بددت عدداً من الافتراضات الزائفة، وفتحت الطريق أمام أفكار جديدة، أو ربما لإصلاح الأفكار المبتسرة التى طالما تغاضينا عنها لأنها لا تلائم تصوراتنا.

وفيما يتعلق بنهاية الطائفة الآسينية أو القمرانية، فإن دائرة المعارف الأمريكية تقول: إنهم اختفوا من التاريخ اليهودى، وربما يكونون قد ذابوا فى جماعة يهودية أخرى، من بينها اليهود الذين اعتنقوا المسيحية، وهذا هو الأرجح، فهناك شبه إجماع بين المؤرخين على أن هناك طائفة تسمى طائفة الفقراء أو «الأبيونيين» ظهرت فى نفس الفترة التى اختفت فيها طائفة الآسينيين، ويبدو أنها البقية الباقية منهم،

(٣٥) op. cit, p. 174.

فقد سبق أن رأينا أن طائفة قمران أو الآسينيين كانوا يصفون أنفسهم بأنهم الفقراء، وسوف نتكلم عن هذه الطائفة بعد أن نتكلم عن الطائفة الرابعة التى كان لها دور واضح فى الحياة الفكرية اليهودية، سواء قبل مجىء المسيح عيسى بن مريم، أو بعد مجيئه وهى الطائفة المسماة بالنصارى.

طائفة النصارى أو النذريين:

تسمى هذه الطائفة فى التاريخ اليهودى، وكذلك المسيحى، بطائفة النصارى Nazarenes أو الناصريين التى يقوم الخلاف بين المؤرخين وعلماء الأديان والمفكرين حول ما إذا كانت قد وجدت قبل المسيح، أم أنها لم توجد إلا بعد ظهوره، ليس ذلك وحسب، بل إن الخلاف امتد إلى الاسم الصحيح لهذه الطائفة، أهو (الناصريون) أم (النصارى) أم (النذريون). فهناك رأى يذهب إلى أن الناصريين هم النصارى، وهو رأى «ديورانت» (٣٦) الذى يذهب أيضاً إلى أنهم كانوا موجودين فى الأيام التى ولد فيها المسيح، وأنهم كانوا يسمون (ناصريين) نسبة إلى الناصرة التى يقال إن المسيح ولد فيها، فى حين يرى (جيبون) أن النصارى هم اليهود الذين اعتنقوا المسيحية، أو كما وصفهم (المرتدون إلى المسيحية) وقد سموا فيما بعد (النصارى) نسبة إلى مدينة الناصرة، فهم بناء على هذا الرأى لم يكن لهم وجود قبل المسيح.

أما العقاد (٣٧) فإنه يرى أن النصارى أو الناصريين لم يكن لهم وجود قبل المسيح، بعكس طائفة النذريين التى يذهب إلى أنها كانت موجودة قبل ميلاد المسيح، فى حين أن النصارى لم يظهروا إلا بعد ميلاد المسيح وإظهار دعوته، ويقول عن طائفة النذريين: إنه كان لها عمل محسوس فى موطن السيد المسيح قبل ميلاده، فقد وهبوا أنفسهم أو وهبهم أهلوهم لحياة القداسة، وخدمة الله والتبشير باليوم الموعود، يوم الخلاص من الظلم والجور والتطهر من الذنوب.

ولم يكن هؤلاء النذريون طائفة تجمعها الوحدة التى تجمع بين أصحاب النحل والمراسم الاجتماعية، ولكنهم كانوا أحاداً متفرقين ينذر كل منهم نفسه أو ينذره

---

(٣٦) ول ديورانت، المرجع السابق، صفحة ٢١٥.

(٣٧) العقاد المرجع السابق، صفحة ٤٩.

أهله على حدة، ولا ينتسبون إلى جماعة واحدة غير جماعة الأمة بأسرها.

والكلمة باللغة العربية ترجع إلى مادة تفيد معنى التجنيد، واستعيرت على ما يظهر للجهاد فى سبيل الله، يقال نذر الجيش الرجل جعله نذيرة أى طليعة، وربما كان من عمله أن ينذر قومه بالعدو ويبعدهم عن المخاطر والمفاجآت، ولاشك أن المادة تدور حول هذا المعنى فى العبرية مع اختلاف الحروف والأوزان.

ولا يشترط فى النذرى أو المنذور أن يهجر العالم ويعتزل الناس فى الصوامع، ولكنه يراض على حياة التنطس، فلا يجوز له أن يشرب الخمر، ولا أن يدنس جسده بملامسة الموتى أو الأجسام المحرمة، وعليه أن يرسل شعره ولا يحلقه قبل وفاء نذره إن كان منذوراً لأجل مسمى، وقد ينذر الطفل قبل مولده ويمتد نذره طول حياته، ويقال عن المنذور إنه بمثابة النبى فى سن الفتوة، قال النبى (عاموس) بلسان (يهوه) إله بنى إسرائيل: «وأقمت من بينكم أنبياء ومن فيتانكم نذيرين.. لكنكم سقيتم النذيرين خمراً وأوصيتم الأنبياء أن يدَّعوا النبوة». والنبوة هنا بمعنى الإنذار بما سيكون.

ويقول الأستاذ العقاد عنهم: «والمهم فى أمر النذيرين بالنسبة للسيد المسيح أن النبى يحيى المغتسل (يوحنا المعمدان) كان علماً من أعلامهم المعدودين، وكان السيد المسيح يعتمد على يديه أو يأخذ العهد عليه، وأن بعض المؤرخين يحسب أن السيد المسيح من النذريين، ويلتبس عليه الأمر بين النذرى والناصرى، وهما فى اللفظ العبرى متقاربان، ومن هؤلاء المؤرخين من يزعم أنه لم يكن من الناصرة، بل يزعم أن الناصرة لم يكن لها وجود؛ لأنها لم تذكر قط فى كتب العهد القديم، ولكن الأرجح أن الناصرة التى كانت تسمى «نذيرة» بمعنى الطليعة عندما كانت على تخوم الأرض التى فتحها العبريون قديماً، وأنها كانت مرقباً صالحاً للاستطلاع؛ لأن التلول التى تحيط بها تكشف جبل الشيخ والكرمل والمرج المعروف باسم مرج بنى عامر، وبهذا تزول الصعوبة التى اعترضت المفسرين الغربيين على الخصوص، ولا سيما الناظرين فى اللغة اليونانية، لغة الأناجيل، فلا عجب أن يضلوا مع التصحيف اللسانى فلا يفرقوا بين النسبة إلى المنذرين والنسبة إلى النذيرة، وبخاصة إذا كان اسم البلدة قد عرض له

التصحيف على ألسنة العبريين والغرباء على طول الزمن، فنطقوه تارة بالصاد وتارة بالسين » (٣٨).

ويستطرد الأستاذ العقاد قائلاً (٣٩): « وليس النذريون طائفة موحدة كما أسلفنا، ولكنهم ينتمون إلى كل مذهب يوافق حمية الشباب، وهذا الذى جعلهم قوة ذات بال فى عصر الميلاد خاصة؛ لأنهم جميعاً فتيان معمورة قلوبهم بالأمل، معقودة نياتهم على الإصلاح، يؤمنون بأنهم رواد الدعوة إلى المسيح الموعود، ويترقبون ظهوره للترحيب به والإصغاء إليه، ولا تحيط بهم طائفة معينة أو مذهب محدود ».

ويقول عنهم « ديورانت » أن المنتمين إلى شيعة الناصرة كانوا يعيشون فى بيريه فى الناحية الأخرى من نهر الأردن، وكانوا يرفضون التعبد فى الهيكل، ويأبون التقيد بالناموس، ولكن الذى أثار حماسهم الدينى هو عظات « يوحنا بن اليصابات قريبة مريم » يقصد النبى يحيى.

وبطبيعة الحال فإن أول من آمن بدعوة المسيح كانوا من طائفتى الآسينيين والنذيريين أو « الناصريين » وهم جميعاً من اليهود الذين نظروا إلى السيد المسيح، لا باعتباره قد جاء بدين جديد، أو بما يناقض الشريعة الموسوية، ولكنهم نظروا إلى ما جاء به باعتباره تصحيحاً للديانة اليهودية التى أفسدها الأحبار، وهذه فى الحقيقة هى النظرة الصحيحة إلى ما جاء به عيسى بن مريم، وما كان هو نفسه حريصاً على تأكيده فى عظاته المختلفة « أنه لم يأت لينقض الناموس بل ليكمله » ولذلك فإن المسيحيين اليهود ظلوا حريصين على الالتزام بما جاء فى شريعة موسى من طقوس، مثل الختان، الذى كانوا يصرون على إلزام كل من يعتنق المسيحية بإجرائه، حتى ولو لم يكن من أصل يهودى.

ليس ذلك وحسب، بل إنهم (أى اليهود) كانوا يستنكرون فى أول الأمر توجيه الدعوة إلى المسيحية إلى الأمميين، ويقصدون بهم غير اليهود، فهم كانوا يعتبرون المسيحية دعوة خاصة بهم وحدهم، وكانوا يهاجمون الرسل، أى الحواريين،

(٣٨) العقاد المرجع السابق، صفحة ٥٠.
(٣٩) المرجع السابق، صفحة ٥١.

ويصرون على منعهم من هداية غير اليهود، من ذلك أنه جاءت من أورشليم إلى أنطاكية طائفة أخرى من المسيحيين اليهود المستمسكين بدينهم، ورأت بطرس يأكل مع الكفرة، وأقنعته بأن ينفصل هو واليهود الذين اعتنقوا المسيحية عن المهتدين غير المختتنين (٤٠).

وقد ظل المسيح زمنا طويلاً لا يرى فى نفسه إلا أنه أحد اليهود، يؤمن بأفكار الأنبياء، ويواصل عملهم، ويجرى على سنتهم، فلا يخطب إلا فى اليهود، ولما أرسل أتباعه لينشروا إنجيله لم يرسلهم إلا لمدن اليهود، فهو يقول: «إلى طريق أمم لا تمضوا، وإلى مدينة السامريين لا تدخلوا» ومن ثم كان تردد الرسل بعد (موته) فى أن يحملوا «الأنباء الطيبة» إلى عالم «الكفرة» ولما التقى المسيح بالسامرية عند البئر قال لها: «إن الخلاص لهو من اليهود». ولما طلبت إليه امرأة كنعانية أن يشفى ابنتها أبى فى أول الأمر وقال: «لم أرسل إلا إلى خراف بنى إسرائيل الضالة». وقال للأبرص الذى شفاه من علته: «واذهب بنى وأر نفسك للكاهن وقدم القربان الذى أمر به موسى». كذلك قال: «على كرسى موسى جلس الكتبة والفريسيون فكل ما قالوا لكم أن تحفظوه فاحفظوه وافعلوه لكن حسب أعمالهم لا تعملوا». ولما عرض يسوع أن تعدل الشريعة اليهودية، سار على سنة هليل فلم يفكر فى أنه ينقض هذه الشريعة وقال: «لا تظنوا أنى جئت لأنقض الناموس أو الأنبياء، ما جئت لأنقض بل لأكمل» وقال أيضاً: «ولكن زوال السماء والأرض أيسر من أن تسقط نقطة واحدة من الناموس» (٤١).

أما الطائفتان الأخريان: الصدوقيون والفريسيون فقد ناصبتاه العداء؛ لأنه كان يقصد رؤساءهما وأحبارهما وكتبهما بعظاته، مما أغضبهم ودفعهم إلى استعداء الحكام الرومان عليه بدعوى أنه يؤلب الناس ويحرضهم على الثورة والتمرد، ويزعم أنه ملك اليهود.

ويقول شارل جينيبير(٤٢): «إنه لم يستجب لدعوة عيسى إلا بضع مئات من

---

(٤٠) قصة الحضارة، جـ٣ المجلد الثالث صفحة ٢٥٥.

(٤١) المرجع السابق صفحة ٢٣٠.

(٤٢) شارل جينيبير: المسيحية نشأتها وتطورها، صفحة ٢٣٠.

أهل الجليل السذج، فالأناجيل عندما تصف لنا جماهير الشعب وهى تقتفى خطاه فى تلهف وتنصت إلى أحاديثه فى إعجاب بالغ، هذه الأناجيل تنسينا ما ترسمه صفحاتها الأخرى ــ فى صورة لا شك أنها أقرب إلى الحقيقة ــ من قسوة قلوب اليهود وتعنتهم الشديد، والواقع أن عيسى نفسه يئس فيما يبدو، من محاولة إقناعهم، وأسباب فشله واضحة للعيان، فهو لم يتحدث إلى الشعب باللغة التى كان ينتظرها منه، كان يدعو إلى التأمل فى النفس وحب الخير، وإلى التواضع والإيمان العميق بالله، فى حين كان الناس يترقبون دعوة إلى الصراع المسلح، وإعلاناً للجهاد الأكبر والأخير قبل الانتصار الخالد، إنه لم يقل لهم: قوموا.. فالمسيح الذى اختاره يهوه معكم» بل قال: مهدوا بالتوبة ليوم الحساب القريب» لم يطلب منهم العمل والكفاح، بل رجاهم الصبر، واتخاذ موقف أخلاقى ودينى، من شأنه أن يحول هذا الصبر إلى نوع من الفروض الحتمية، فيه ما فيه من القسوة على النفس. كان من بنى إسرئيل ولكنه لم يتعصب لقومه.

ومما لا شك فيه أن موقف الصدوقيين والفريسيين من السيد المسيح كان له أكبر الأثر فى تردد الطوائف الأخرى فى الانضمام إليه، والإيمان بدعوته، لذلك لم يزد عدد طائفة (النصارى) فى الفترة التى تلت رفع السيد المسيح على ١٢٠ فرداً، كان معظمهم من شيعة الآسينيين. ولذلك لم يجد رؤساء اليهود ما يدعوهم إلى الاعتراض على قيام هذه الشيعة لصغرها، وانتفاء الأذى من وجودها، إلا أن عدد النصارى لم يلبث أن تضاعف فى سنين قلائل، فقفز إلى ثمانية آلاف شخص، مما جعل الرعب يستولى على قلوب الكهنة اليهود، الذين بادروا إلى القبض على بطرس أحد حوارى المسيح وغيره من الحواريين، وعلى أثر ذلك بدأ اليهود اضطهاد إخوانهم الذين اعتنقوا المسيحية، فحاكموا بعضهم وزجوا بهم فى غياهب السجون (٤٣). فلجأ عدد من اليهود المهتدين ذوى الأسماء والثقافة اليونانية الذين تزعمهم اصطفانوس إلى السامرة وأنطاكية، وأنشئوا فيها جماعات مسيحية قوية امتزجت لديها العقيدة بالأفكار الوثنية اليونانية، التى تضمنتها الثقافة التى تشربوها.

(٤٣) المرجع السابق صفحة ٤٤.

أما معظم الرسل (الحواريون) فيبدو أنهم سلموا من الاضطهاد؛ لأنهم ظلوا يراعون الناموس، فقد بقوا فى أورشليم مع المسيحيين اليهوديين الذين آلت رئاستهم إلى يعقوب (العادل) المسمى «أخو الرب». وقد قل عدد الجماعة المؤمنة المقيمة فى أورشليم، ونقصت مواردها، وكان يعقوب يبشر بالناموس بكل ما فيه من صرامة، ولم يكن يقل عن الآسينيين تقشفاً وزهداً، فلم يكن يأكل اللحم أو يشرب الخمر، ولم يكن له إلا ثوب واحد، وظل المسيحيون تحت قيادته سبعة أعوام لا يمسهم أذى، ثم حدث حوالى عام ٤١ أن قتل المدعو يعقوب بن زبيدى فقبض على بطرس ولكنه فر، ثم قتل يعقوب العادل فى عام ٦٢، وبعد أربعة أعوام من ذلك الوقت ثار اليهود على روما، وأيقن المسيحيون المقيمون فى أورشليم أن «نهاية العالم» قد دنت، فلم يأبهوا بالشئون السياسية، وخرجوا من المدينة، وأقاموا فى بلاد الوثنية الضالعة مع روما والقائمة على الضفة البعيدة من نهر الأردن (مملكة الأنباط) وافترقت اليهودية والمسيحية من تلك الساعة، فاتهم اليهود المسيحيين بالخيانة وخور العزيمة، ورحب المسيحيون بتدمير الهيكل على يد تيطس تحقيقاً لنبوءة المسيح (٤٤).

ولم يكن اليهود الذين اعترفوا بالمسيح يعتبرونه ابناً لله أو غير ذلك، مما أقحمه بولس وغيره على المسيحية فيما بعد، وإنما كانوا يعتبرونه نبياً رسولاً من البشر، بعث ليطهر الأرض، ويقيم ملكوت الله، ويعيد الإيمان إلى الناس بعقيدة البعث بالأجسام، وهو ما يخالف عقيدة الصدوقيين من جهة، ويهدد نفوذ وسلطان الفريسيين من جهة أخرى، ويحرمهم من المكانة التى يتمتعون بها.

وكما قلنا فإن المسيح لم يقل قط إنه إله أو ابن إله، بل كان يقول: «لماذا تدعونى صالحاً، ليس أحد صالحاً إلا واحد هو الله» وقال وهو يصلى فى جتسمانى: «ليكن لا ما أريد أنا بل ما تريد أنت» أى الله.

أما بالنسبة لعامة اليهود فإنهم أصيبوا بخيبة أمل كبيرة فى المسيح الذى كانوا يعتقدون ــ لكثرة ما سمعوه من أخبارهم ــ أنه سيجىء قوياً محارباً يقودهم فى ثورة شاملة أو حرب ناجحة ضد مضطهديهم، ولذلك كانت خيبتهم عظيمة عندما

---

(٤٤) ديورانت، المرجع السابق صفحة ٢٤٤ ــ ٢٤٥.

سمعوا عظاته التى يدعوهم فيها إلى التسامح مع أعدائهم، بل ويوجه النقد إلى اليهود أنفسهم وإلى أحبارهم، محملاً إياهم المسئولية عما لحق بالشريعة من تحريف؛ ولذلك فإن ما قاله وجد صدى طيباً لدى كل من الآسينيين والنصارى الذين طالما عابوا على الأحبار فسادهم وانحلالهم، وسوء استغلالهم للناموس. وكانت بهجتهم عظيمة وسرورهم لا حد له، لتدمير الرومان للهيكل، واعتبروا ذلك تحقيقاً لما تنبأ به المسيح.

وقد وجه اليهود الذين ناصبوا المسيح العداء كراهيتهم إلى أبناء ملتهم الذين آمنوا به بشراً رسولاً، فاضطهدوهم ونكلوا بهم وطاردوهم، ففر هؤلاء إلى الأقاليم المجاورة، فاتجه بعضهم إلى اليونان وسوريا، واتجه البعض الآخر إلى الجانب الآخر من نهر الأردن حيث تقوم دولة الأنباط.

وتحققت بذلك نبوءة المسيح الذى كان واحدٌ من تلاميذه قد سأله فيما هو خارج من الهيكل: يامعلم، ما هذه الحجارة وهذه الأبنية؟ فأجاب يسوع وقال له: انتظر هذه الأبنية العظيمة، لا يترك حجر على حجر لا ينقض (٤٥). كذلك قال: فإذا سمعتم بحروب وبأخبار حروب فلا ترتاعوا؛ لأنها لابد أن تكون، ولكن ليس المنتهى بعد؛ لأنه تقوم أمة على أمة، ومملكة على مملكة، وتكون زلازل وتكون مجاعات واضطرابات، هذه مبتدأ الأوجاع (٤٦). وسيسلم الأخ أخاه إلى الموت والأب ولده، ويقوم الأولاد على والديهم ويقتلونهم، وتكونون مبغضين من الجميع من أجل اسمى، ولكن الذى يصبر إلى المنتهى فهذا يخلص. فمتى نظرتم رجاسة الخراب التى قال عنها دانيال النبى قائمة حيث لا ينبغى ليفهم القارىء، فحينئذ ليهرب الذين فى اليهودية إلى الجبال، والذى على السطح فلا ينزل إلى البيت، ولا يدخل ليأخذ من بيته شيئاً، والذى فى الحقل فلا يرجع إلى الوراء ليأخذ ثوبه، وويل للحبالى والمرضعات فى تلك الأيام (٤٧).

واستجابة لما أمر به المسيح من الهرب إلى الجبال فر الآسينيون وغيرهم ممن

---

(٤٥) إنجيل مرقس، الإصحاح الثالث عشر، الفقرتان ١و٢.

(٤٦) المرجع السابق، الفقرتان ٧ و٨.

(٤٧) المرجع السابق، الفقرات من ١٢ إلى ١٦.

آمنوا به بشراً رسولاً، وتعرضوا للاضطهاد والقتل والمطاردة «والبغض من الجميع من أجل اسم المسيح» إلى الصحراء فى شرق الأردن، حيث الكهوف التى كانوا قد اعتادوا اللجوء إليها، والتى كانت عصابات المتمردين على الحكم الرومانى تنسحب إليها بعد أن تنتهى من شن غاراتها، ثم لم يلبث قسم من الكنيسة اليهودية ــ المسيحية Judeo - Christian أن اتخذ لنفسه مركزاً فى هذه المنطقة (٤٨).

وأخذت المسيحية اليهودية من ذلك الوقت يقل عدد أتباعها وتضعف قوتها، وتترك الدين الجديد للعقلية اليونانية تشكله وتصبغه بصبغتها، وقد أطلق على الفئة القليلة التى تمسكت بالعقيدة الصحيحة القائمة على فكرة أن المسيح بشر وليس إلهاً أو ابن الله اسم الطائفة الأبيونية (٤٩) Ebionistes. ويقول (جيبون): إن أبيونية معناها (الفقراء) الذين وصفوا بأنهم كانوا يجمعون بين التقشف المسيحى والناموس اليهودى الكامل.

ويقول (جيبون) إن طائفة (الابينيم) أو الفقراء انسحبت إلى مدينة (بللا) Pella فى الشرق من نهر الأردن. أما (ديورانت) فيقول إنهم انسحبوا إلى مدينة (بيرا) Perea وكلا المؤرخين يقول: إنها تقع فى شرق الأردن، إلا أن (بللا) التى ذكرها (جيبون) كانت تعد من المدن العشر أو (الديكابولس) التى أنشاها الإغريق فى صحراء الشام، ومنها بيت ــ شان وديون، وجرش وفيلادلفيا (عمان الآن) وغيرها.

وقد ورد فى إنجيل متى (٥٠) أن بعض سكان المدن العشر تبعت المسيح فى عهد رسالته الأولى (٥١). ويقول متى أيضاً وهو يتكلم عن المسيح «فتبعته جموع كثيرة من الجليل والعشر المدن وأورشليم واليهودية ومن عبر الأردن». وكانت

(٤٨) Allegro, op. cit, p. 169.

(٤٩) يبدو مما قاله (جيبون) عن هذه الطائفة إنها لاتنتسب إلى أبيون (الذى كان يقول إن المسيح بشر ولدته السيدة العذراء بعد زواجها من يوسف النجار، ولكنه، أى المسيح أحرز الفضائل فاتخذه الله ابنا له. وقد اختلف بعض أتباع (أبيون) معه فقالوا إن مريم حبلت بعيسى بفعل روح القدس، لكنهم أنكروا مساواته للأب فى الجوهر. وكان أتباع أبيون ويسمون (الأبيونيين) لا يعترفون إلا بإنجيل متى مع إسقاط بعض فصول منه وتعديل آيات كثيرة أخرى.

(٥٠) الأصحاح الرابع، الفقرة رقم ٢٥.

(٥١) فيليب حتى، تاريخ سورية، الجزء الأول، صفحة ٣٥١.

(بللا) من المدن العشر هذه، وكانت تقع فى شرق الأردن، وتقابل بيسان التى تقع غربى النهر.

أما المدينة التى ذكرها (ديورانت) واسمها (بيرا) فإنها تبعد عن المدينة الأولى بمسافة كبيرة، وتقع فى الجنوب، وكانت مركزاً نبطيًّا مشهوراً تاريخيًّا وتسمى فى العربية (بطرا). وكانت حاضرة دولة الأنباط.

وعلى الرغم من بعد المسافة بين المدينتين (بللا) التى ذكرها جيبون و(بيرا) التى ذكرها (ديورانت) فإنه ليس من المستبعد أن تكون الطائفة الهاربة بدينها من اضطهاد اليهود والمسيحيين، قد انتشرت فى المنطقة الممتدة بطول نهر الأردن من ناحية الشرق، حيث تلائمها طبيعة التضاريس فيها، فهى تتكون من جبال ووديان، وتوجد بها كهوف بطول المنطقة.

والمعروف أن البرية، وهى المنطقة الممتدة بطول الضفة الشرقية لنهر الأردن، كانت فى مختلف العصور ملاذاً للهاربين من الاضطهاد، وبخاصة اليهود الذين كانوا يستجيبون بذلك لدعوة النبى (أشعياء) الذى كان يقول: «فى البرية هيئوا صراط الرب» وهو ما أوصاهم به السيد المسيح بعد ذلك كما ذكرنا، وفضلاً عما تتيحه لهم الكهوف المنتشرة فى البرية من مأوى آمن، فإن الصحراء كانت دائماً أنسب مكان للتأمل فى ملكوت الله، واعتزال الناس والتفرغ للعبادة.

وسوف نلاحظ عند تحليلنا وتفسيرنا لقصة فتية الكهف كما وردت فى القرآن الكريم، أن عاداتهم ونظامهم وسلوكهم تماثل تماماً عادات وتقاليد ونظم وسلوك الآسينيين والقمرانيين، ثم تلك الشيعة الصغيرة التى تفرعت عنهما، والتى تعتبر البقية الباقية بعد أن استهدفتا لعدوان اليهود والمسيحيين معاً، وهى شيعة الفقراء أو الزهاد، أو كما أطلق عليها الحزبان: حزب اليهود وحزب المسيحيين (الأبيونيين).

وقد اضطهدهم اليهود لأنهم كانوا يرفضون ما فعله الأحبار من تزوير للتوراة، والتمسك بالشكليات، وإهمال الجوهر والاتجار بالعقيدة، والكذب والرياء، والقسوة والأنانية، والجشع وحب المال، واقتراف كل أشكال الرذائل والموبقات، وأخيراً إيمانهم بالسيد المسيح النبى الذى بشر به موسى عليه السلام، باعتباره ليس مثل موسى، ولكنه من بنى إسرائيل، وهو ما يخالف كل ما حاولوا أن يقنعوا اليهود به

من أن النبى الذى بشر به موسى سوف يكون مثله محارباً يقودهم ضد أعدائهم ، ويلحق الهزيمة بهم ، ويعيد مجد إسرائيل ، ومما زاد الطين بلة ما أظهره الآسينيون والنصارى من سرور بتدمير الهيكل ، وإذا كان (هادريان) قد صب جام غضبه على اليهود جميعاً بدون أن يميز بين من ظل منهم على عقيدته ، ومن آمن بالمسيح البشر الرسول ، فحرم الجميع من الاقتراب من جبل صهيون ، حيث تقوم الكنيسة والمعبد ، فإن اليهود الذين لم يؤمنوا بالمسيح ولم يعترفوا به نبياً رسولاً ، ظلوا يتحينون الفرص للانتقام من إخوانهم الذين آمنوا به وبدعوته ، حتى إذا لاحت لهم الفرصة لم يدعوها تفلت منهم ، وانقضوا عليهم فأعملوا فيهم سيوفهم ذبحاً وتقتيلاً ، ومن تمكن منهم من الإفلات من المذبحة لم يلبث أن وقع فى أيدى هؤلاء الذين انحرفوا برسالة المسيح عن طريقها الصحيح ، فزعموا أنه ابن الله .

فعندما انتهت فترة الاضطهاد واستعاد جبل صهيون اسم كنيسة أورشليم وأمجادها ، ألقى المسيحيون تبعة ما حدث على « الناصريين » أى اليهود المسيحيين ، ونسبوا إليهم جرائم الانشقاق والضلال ، خاصة وأنهم قد رفضوا التخلى عن عقيدتهم فى المسيح الرسول ، وعندما اضطلع المدعو ماركوس بوظيفة أسقف أورشليم ، وسعى إلى التصالح مع الرومانيين ومع الكنيسة الكاثوليكية على حساب عقيدة الناصريين ، فما كان من هؤلاء إلا أن رفضوا أن يوافقوه وظلوا يحتفظون بمدينة (بللا) Pella موطنهم السابق ، وانتشروا فى القرى المجاورة لدمشق وأنشئوا لهم كنيسة فى مدينة حلب .

ويقول جيبون : « واعتبر اسم النصارى أو الناصريين أسمى وأشرف من أن يطلق على هذه الشرذمة من اليهود المسيحيين ، وسرعان ما أضفى عليهم ما افترض فيهم من ضيق الأفق وضآلة الإدراك بالإضافة إلى حالتهم ــ الاسم المزرى « الأبيونيين » (٥٢) .

ويقول عنهم أيضاً : « أما الأبيونيون التعساء الذين لفظتهم ديانة لأنهم مارقون (يقصد اليهودية) ولفظتهم الأخرى لأنهم هراطقة (يقصد المسيحية) فقد وجدوا أنفسهم مضطرين إلى تحديد موقفهم بشكل أدق ، وربما وجدت حتى القرن الرابع بقية لهذه الطائفة البالية ، إلا أنها ذابت بطريقة غير ملحوظة فى الكنيسة المسيحية ،

(٥٢) اضمحلال وسقوط الإمبراطورية الرومانية ، الجزء الأول ، صفحة ٣٣٢ .

أو فى الهيكل اليهودى » (٥٣).

وقد ردد الأستاذ عباس العقاد هذا الكلام قائلاً: « ثم ذهبت هذه الطائفة فى الغمار فلا هى إلى اليمين ولا إلى اليسار، ولم يبق لها نصيب فى تاريخ اليهود، ولم يبق لها نصيب فى تاريخ المسيحين (٥٤) وإذا كان جيبون قد قال إن طائفة الأبيونيين أو الفقراء ربما وجدت حتى القرن الرابع الميلادى، فإن (ول ديورانت) يقول: إنها ظلت قائمة مدى خمسة قرون على الرغم من أن الكنيسة المسيحية التى قامت على عقيدة تأليه المسيح واعتباره ابناً لله كانت قد حكمت على هذه الطائفة فى نهاية القرن الثانى بالكفر، وأخرجتهم من حظيرتها (٥٥).

والسبب فى لجوء شيعة الأبيونيين إلى بيرا Perea أو بللا Pella فى قول آخر يرجع إلى أن طائفة الناصريين التى تفرعت عنها هذه الشيعة كانت قد انتقلت من الناصرة إلى بيرا فى القرن السابق على ميلاد المسيح بسبب اضطهاد عامة اليهود لها، بعد رفضها التعبد فى الهيكل والتقيد بالناموس، وكان اليهود قد ضموا هذه المدينة إلى مملكتهم عام ٧٨ قبل الميلاد فى نفس الوقت الذى ضموا فيه إلى هذه المملكة السامرة، وراءوم، ومؤاب والجليل وأدوميا، وما وراء النهر أو ما يعرف الآن بشرق الأردن (٥٦).

العلاقة بين الأبيونيين وطائفتى الآسينيين والنصارى:

ولعلنا بعد هذا العرض لما كتبه المؤرخون والمفكرون عن الطوائف اليهودية، نلاحظ أن بعض المؤرخين ـ وإن كانوا قد استطاعوا أن يميزوا بين الآسينيين والنصارى ـ لم ينجحوا فى محاولاتهم تحديد علاقة طائفة الأبيونيين بطائفتى الآسينيين والنصارى وعن أيهما تفرعت، فمنهم من يذهب إلى القول بأنها تفرعت عن طائفة النصارى كما قال (جيبون)، ومنهم من يرى أنها تفرعت عن طائفة الآسينيين أو الآسيين، كما قال (ديورانت). وهو ما رردده الأستاذ يوسف

---

(٥٣) المرجع السابق، صفحة ٣٣٣.
(٥٤) حياة المسيح، صفحة ١٤٤.
(٥٥) قصة الحضارة، المرجع السابق صفحة ٢٤٨.
(٥٦) المرجع السابق صفحة ١٦١.

الحداد (٥٧) فهو يقول : «وكانوا يعتبرون أنفسهم «أهل الصراط المستقيم» الذين يؤمنون بالله واليوم الآخر، والفرقة الناجية من بنى إسرائيل، وأهل (العهد الجديد) الموعود، وكانوا يسمون أنفسهم (قديسى الله) و(الأبيونيين) أى المساكين، وأبناء النور وأهل الرضا، وغرسة الله فى أرضه، وهيكل الله الحى».

ويقول أيضاً : «يؤيد ذلك هداية جماعة قمران إلى «النصرانية» الإسرائيلية، بعد الحرب السبعينية لما رأوا فى خراب أورشليم والهيكل تتميم نبوءة المسيح، فحملوا إليها صفة (الأبيونية) التى كانوا يتصفون بها. وصارت (النصرانية) تتصف (بالأبيونية) (٥٨)».

أما الأستاذ العقاد فإنه يبدو من وصفه لطائفة النذريين أن عاداتها ومعتقداتها لا تختلف فى شىء عن عادات الأبيونيين، وهذا كله إن دل على شىء فإنما يدل على أن الأبيونيين هم البقية الباقية من طائفتى الآسينيين والنصارى، الذين تمسكوا بعقيدتهم فى المسيح البشر الرسول، وكانوا ــ فى غالبيتهم ــ من الزهاد أو الفقراء. وتقول دائرة المعارف الأمريكية : إنه ربما يكونون هم أنفسهم قد استخدموا هذه الكلمة السامية (أبيونيم) لكى يرمزوا إلى زهدهم وتقشفهم، ولكنها استخدمت على سبيل السخرية من جانب خصومهم الذين قصدوا إلى تحقير لاهوتهم والازدراء بعقيدتهم.

وقد اتفقت الدائرة مع المؤرخين فى أن الأبيونيين كانوا يعتقدون أن يسوع ليس ابناً لله، ولكنهم اختلفوا فيما بينهم بشأن مسألة ولادته من عذراء، فبعضهم أيده والبعض الآخر عارضه ورفضه. واتفقوا جميعاً، على أن يسوع ــ وإن لم يكن إلهاً ــ إلا المسيح الموعود به، ويذهبون إلى أنه نال منزلته من الله نتيجة لتمسكه بصورة فريدة بالالتزام بحرفية ناموس موسى (التوراة) وهو ما جعل الله يصطفيه ويحتفى به بشكل شعبى وعام أثناء تعميده بمعرفة (يوحنا) فى نهر الأردن، ووقفوا موقف المعارضة للمارسيونية Marcionites وهو المذهب الذى ينكر كل علاقة باليهودية بما فى ذلك العهد القديم (التوراة).

---

(٥٧) المرجع السابق، صفحة ٦٠٩.
(٥٨) المرجع السابق، صفحة ٦١٦.

وكان للأبيونيين مجموعتهم الخاصة من الكتابات المقدسة، واستخدموا العهد القديم لا فى لغته العبرية الأصلية، ولا فى إحدى ترجماته اليونانية التى كانت متداولة بين المسيحيين، ولكنهم استخدموا الترجمة اليونانية التى وضعها (سيماشوس) Symmachus الذى تعتبره الكنيسة اليوسوبية Eusedius أبيونيًا. وكانوا ينظرون إلى رسائل بولس بازدراء باعتبارها كتابات وضعها مرتد محرف، ويبدو أنهم لم يكن لديهم أى من الأناجيل المعتمدة وذلك لشكهم فيها، ولكنهم تداولوا إنجيلهم الخاص بهم.

وتقول دائرة المعارف الأمريكية إنه من المحتمل أن يكون جوستين الشهيد Justin Martyr قد ذكر الأبيونيين بطريقة ما (ولو أنه لم يذكرهم بالاسم) حوالى سنة ١٦٠ ميلادية. وفيما بعد تناولهم بالبحث الكتاب المسيحيون الأوائل مثل (ترتوليان) Tertulian وايرنيوس Irenaeus وهيبوليتوس Hippolytus ويوسبيوس Eusedius ومما ذكروه عنهم يمكن الافتراض بأنهم لم يكونوا متفقين فى جميع الأمور، وفيما بعد اصطدموا بالمسيحية الأرثوذكسية، وكان ذلك ابتداء من القرن الرابع الميلادى، ثم ما لبثوا أن اختفوا عن الأنظار، وعلى الرغم من أن اصطدامهم بالكنيسة كان بسبب إنكارهم لألوهية المسيح وإيمانهم به بشراً رسولاً(٥٩) وهو ما جعل الكنيسة تصدر قرارها بحرمانهم واعتبارهم محرفين ومهرطقين، فإن هناك سبباً آخر لموقف الكنيسة من هذه الطائفة لا يقل أهمية عما اعتبرته هرطقة وتحريفاً من هذه الطائفة، لقولها بأن المسيح بشر وليس إلهاً وابن الإله، وهذا السبب فى الحقيقة قديم وجديد فى آن واحد، وهو عنصرية الغرب الفجة، فقد أنف أن يعتنق عقيدة سامية، هى فى حقيقتها ليست غير مذهب إصلاحى يهودى، وليست ديناً جديداً، وكان الإغريق ومن بعدهم الرومان يكرهون اليهود ويحتقرونهم، لما كانوا يلاحظونه من تصرفاتهم الغريبة والمنفرة، مثل التمسك بالعزلة، وما عرف عنهم من جشع وطمع واستغلال للآخرين، ممن كانوا يسمونهم (الأمميين) وعدم ولائهم للمجتمعات التى يعيشون بين ظهرانيها، وجبنهم الشديد، وعلى الرغم من كل هذه المثالب والعيوب التى أصبحت سمات مميزة لهذا الشعب، فإنهم كانوا يتصرفون بصلف وكبرياء لا لشىء إلا لاعتقادهم الخاطىء بأنهم شعب الله المختار،

(٥٩) Paul Johnson, A History of Christianity, op cit, 90.

لكل ذلك لم يتصور الآريون (الأوربيون) أن يعتنقوا ديناً يهودياً، أو حتى منبثقاً عن هذا الدين السامى خاصة أن الساميين كانوا قد وقعوا منذ زمن بعيد فى براثن الاحتلال الآرى، واعتبروا مواطنين من الدرجة الثانية حيناً، وعبيداً حيناً آخر.

ومما لا شك فيه أن بولس عندما ذهب إلى أوربا يدعو إلى المسيحية، ذهب، وهو يحمل فى داخله إحساساً بالدونية أمام الفكر الأوربى الذى كان قد درسه وتأثر به، ولذلك فإنه آثر أن يعرض بضاعة تلائم هذا الفكر، لا أن يعرض المبادىء التى جاء بها عيسى عليه السلام، والتى غلب على ظنه أن الآريين لن يقبلوها.

ويمكن أن نلحظ بسهولة النغمة العنصرية القوية فيما كتبه مؤرخ مثل (بونسين Bunsen (٦٠)، عن المسيحية، فهو حين يتكلم عنها يبدو كما لو كان يسجل صراعاً بين العنصر السامى صاحب اليهودية والنصرانية، والعنصر الآرى (اليونان والرومان) أصحاب المسيحية، وكيف انتهى هذا الصراع بانتصار الآريين الذين نجحوا فى فصل المسيحية عن اليهودية، بإقامة عقيدة التثليث والتأكيد عليها، بحيث أصبح الخلاف بينها وبين عقيدة التوحيد اليهودية جذرياً ولا رجعة فيه، ثم كيف عملوا على الخلاص من اليهود الذين اعتنقوا النصرانية، حتى لا يؤدى وجودهم فى داخل المسيحية، مع إيمانهم بالإله الواحد، وإنكارهم للثالوث، إلى إضعاف المسيحية ثم القضاء عليها.

وقد سبق أن بينا كيف أن كثيراً من الباحثين لاحظوا التماثل الواضح بين عقيدة الآسينيين الذين كانوا يقيمون فى خربة قمران، وبين ما ورد فى الأناجيل، وبخاصة إنجيل يوحنا مما جعلهم يرجحون أن يكون أصحاب تلك الأناجيل قد نقلوا كثيراً مما فيها من مصادر الآسينيين بعد إضافة فكرة التثليث، التى أقحمها بولس على دعوة المسيح عليه السلام، وهذا فى ظننا صحيح لا ينال منه القول بأنهم، أى ــ الآسينيين ــ قد قامت بينهم وبين دعوة المسيح عليه السلام بعض الاختلافات، فهذه الاختلافات بسيطة للغاية، وليست مما يصطدم بأسس العقيدة، بل إن كثيراً منها مصطنع ولا أصل له، من ذلك القول بأنه فى حين كانوا أمة معتزلة

(60) C.C Baron Bunsen, God in History, or the Progress of Man's Faith in The moral order of the World Vol, 1860, p. 42.

عن الشعب يتنجسون من أكله، ومن مجالسة العشارين والخطاة-فإن المسيح كان على العكس من ذلك، يأكل ويشرب مع العشارين والخطاة، وبينما كانوا يعتبرون الخاطىء نجساً كالمشرك، فإن يسوع كان يقبل توبة الابن الشاطر الفاجر ويسمح للزانية العاهرة-حين تابت وأتت إليه -أن تقبل قدميه وتمسحها بشعر رأسها، ويرى أن العشار التائب أفضل من الفريسى أو القمرانى المتجبر، فإن كل هذه الاختلافات وغيرها إنما نشأت عن أن المسيح كان نبيًّا ورسولاً يوحى إليه من السماء، أو أكثر من هذا، وهو ما قاله بولس، كان إلهاً وابن إله، فله بهذه الصفة أن يغير ويبدل فى الناموس، على الرغم من أنه هو نفسه نفى ذلك بشدة وقال إنه ما جاء ليبدل الناموس، بل جاء ليهدى خراف بنى إسرائيل الضالة. وما فعله الآسينيون لم يكن إلا التزاماً منهم بهذا الناموس.

أما ما قيل من أنهم اختلفوا معه فيما دعا إليه، حيث إنه دعا إلى التثليث فى التوحيد الكتابى فى حين دعوا هم إلى التوحيد التوراتى وأنهم اعتبروا المسيح بشراً رسولاً، فى حين أعلن المسيح فى محاكمته أمام السهندرين، مجلس القضاء الأعلى: «من الآن يكون ابن البشر جالساً عن يمين قدرة الله! فقالوا جميعاً: أفأنت إذن ابن الله؟ فقال لهم: أنتم قلتم! أنا هو» فيسوع هو «ابن داود» و«ربه» معاً ويسوع يدعو إلى الله بصفة كونه «أبى» و«أبانا الذى فى السموات»، فى حين أنه فى مخطوطات قمران لم يجد العلماء إلا مرة واحدة أنهم يصفون الله أباً»(٦١) فإن كل هذا كلام لم يقم الدليل عليه من أقوال المسيح ذاته، بل إن ما استدل به أنصار هذا الادعاء إنما يثبت عكس ما ادعوه فقول المسيح عن الله تعالى «أبى» ليس معناه أنه يقصد أنه أبوه فعلاً، وإلا فإن ما قاله عن «أبانا الذى فى السموات» يفهم منه أن البشر جميعاً هم أيضاً أبناء الله، ولكن بالميلاد، كما زعموا بالنسبة لعيسى، ولكن الواضح من كلامه أنه كان يقصد أن البشر جميعهم هم عيال الله وليسوا أبناءه بالميلاد.

ولعلنا من هذا البحث المستفيض فى طوائف اليهود وعلاقتها بالمسيح وموقفها من دعوته-نكون قد بددنا جانباً من الغموض الذى أحاط بنشأة الفتية الذين أووا

---

(٦١) يوسف الحداد، المرجع السابق، صفحة ٦١٧.

إلى الكهف، والذين لم يكونوا من سكان افسوس، كما تقول الأسطورة المسيحية، وإنما كانوا من سكان «بيرا» أو البطراء، أو فى فرض آخر، من سكان (فيلادلفيا) التى أصبحت تسمى عمان حيث يتوسط الكهف هاتين المدينتين حتى لقد سمى العرب (البطراء) مدينة أهل الكهف.

وكان هؤلاء الفتية من شيعة (الأبيونيين) التى تفرعت عن طائفة الآسينيين فى أرجح الأقوال، وقد تبين لنا مما ذكره المؤرخون عن هذه الطائفة، وما أسفرت عنه كشوف البحر الميت ــ أن مبادئها وقيمها وعاداتها وعقائدها كانت مماثلة تماماً لما كان عليه النبى يحيى (يوحنا المعمدان) كما يرد اسمه فى الكتب المسيحية، ولما جاء به المسيح عليه السلام من الدعوة إلى الحب ونبذ الكراهية والميل إلى السلم، والتقشف والزهد، والبعد عن الرياء والنفاق.

كذلك فإنهم كانوا يؤمنون بالبعث والحساب والثواب والعقاب، ويترقبون مجىء المسيح، النبى الرسول، ويقيمون فى الأماكن النائية بعيداً عن صخب المدن، وإنهم عندما أظهر المسيح دعوته انضموا إليه واعترفوا به نبيًّا ورسولاً، فأغضبوا قومهم اليهود الذين كانوا يعبدون «يهوه» وهو إلههم وحدهم، دون غيرهم من الأمم، ثم لم يلبثوا أن أغضبوا المسيحيين الجدد الذين خلطوا المسيحية الحقة بالوثنية والشرك، وأقحموا عليها عقيدة التثليث، ونادوا بألوهية المسيح.

وهؤلاء وأولئك هم قوم الفتية، ولكنهم منقسمون على أنفسهم إلى يهود متمسكين بعقيدتهم التى أفسدها الأحبار، ومسيحيين من أتباع بولس اليهودى الذى يؤله المسيح ويدعوه ابن الله، وقد حدث هذا عندما قامت الثورة اليهودية عام ٦٦ ــ ٧٠ ميلادية عندما قضى الرومان على مستوطنة الآسينيين وعلى أديرتهم فى خربة قمران قبل القضاء على أورشليم عام ٧٠ ميلادية، فقام الآسينيون قبل هروبهم من المنطقة بإخفاء مخطوطاتهم فى الكهوف المنتشرة فى المنطقة، ومن نجا منهم من مذبحة الرومان انضم بعضهم إلى ما يسمى «النصرانية اليهودية» وهؤلاء هم الذين عرفوا فى التاريخ باسم الأبيونيين أى الفقراء، وهم الذين قال الإنجيل فيهم: «طوبى للأبيونيين» وهى بالآرامية، ومعناها بالعربية المساكين، فى حين انضم البعض الآخر إلى تلاميذ (يوحنا المعمدان) وصاروا يسمون أنفسهم

(المندائيين) (٦٢) .

وقد عاش الأبيونيون فى البرية التى توجد فى الضفة الشرقية لنهر الأردن ، يعبدون الله الواحد الأحد ، ويؤمنون بعيسى بشراً رسولاً ، ولكنهم لم يسلموا من الاضطهاد الذى أصبح مصدره مزدوجاً ، فقد اضطهدهم اليهود باعتبارهم مرتدين عن اليهودية ، واضطهدهم المسيحيون باعتبارهم محرفين ؛ لأنهم رفضوا الاعتراف بيسوع ابناً لله ولم يعترفوا بالثالوث .

ولعل هذا يفسر لنا قول الفتية : ﴿ رَبُّنَا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَن نَّدْعُوَاْ مِن دُونِهِۦٓ إِلَٰهًا لَّقَدْ قُلْنَآ إِذًا شَطَطًا ﴾ (٦٣)

ثم قولهم : ﴿ هَٰٓؤُلَآءِ قَوْمُنَا ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً لَّوْلَا يَأْتُونَ عَلَيْهِم بِسُلْطَٰنٍۭ بَيِّنٍ ۖ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا ﴾ (٦٤)

فهم فى القول الأول يقصدون بالإله الذى لن يدعوا إليه ، إله اليهود (يهوه) ويقصدون فى القول الثانى آلهة المسيحيين (الأب والابن والروح القدس) ثم العذراء التى اعتبروها إلهة هى الأخرى . وهم من كان فتية أفسوس يؤمنون بهم فى ظل عقيدة التثليث ، والراجح لدينا أن طائفة الأبيونيين أو الفقراء لم تنقرض فى القرن الخامس كما ذهب إلى ذلك ديورانت ، وإنما استمرت فى الوجود حتى ظهور الإسلام ، والدليل على ذلك أن طريقة هذه الطائفة فى الحياة فى الصحارى بعيداً عن العمران ، واتخاذ الصوامع للعيش فيها ظلت متبعة من جانب عدد من الرهبان الزهاد الذين كانت صوامعهم تمتد من شرق الأردن إلى عمق الصحراء فى الجزيرة العربية ، على طريق التجارة مع الشام ، ومع مصر عن طريق أيلة .

كذلك فإن هؤلاء الرهبان الزاهدين كانوا متمسكين كعادة أسلافهم بتوراة موسى ، ويعلمون ما فيها من نبوءات ، وكذلك بإنجيل المسيح الذى لم تنل منه أيدى بولس وشيعته ، ومن شيعة الأبيونيين الراهب المعروف فى التاريخ الإسلامى باسم

---

(٦٢) يوسف الحداد ، المرجع السابق ، صفحة ٦١٠ .

(٦٣) سورة الكهف ، الآية ١٤ .

(٦٤) سورة الكهف ، الآية ١٥ .

بحيرا Bahira الذى تردد ذكره فى كتب السيرة أنه التقى بالنبى ﷺ، وتنبأ بأنه النبى المنتظر لما رآه من علامات وبشارات تطابق ما جاء فى التوراة والإنجيل الصحيحين، وقد كانت لدى الأبيونيين نسخ منهما، كما كان لدى الآسينيين. وكان هذا الراهب يقيم على مقربة من بلدة بصرى بإقليم حوران.

وقد أراد المستشرقون وعلماء التاريخ الغربيون أن يسددوا طعنة إلى الإسلام باتهامهم للرسول ﷺ أنه تلقى عقيدته وشرائعه وأجزاء من القرآن من هذا الراهب، فكان أن رد الله كيدهم إلى نحورهم؛ إذ أنهم بذلك يعترفون أن هذا الراهب كان يؤمن بعقيدة التوحيد، وأن اليهود والنصارى قد غيروا وبدلوا فى كتبهم، فوصف اليهود الله سبحانه وتعالى بأوصاف لا تليق به، وصوروه فى صورة سيئة مهينة، فقد شخصوه ونسبوا إليه عواطف الإنسان وأعماله، فذكروا أنه كان يتمشى فى الجنة، وأنه كان يصارع ويأكل ويشرب ويخشى مركبات الجبال، بل وقالوا عنه ما ذكره القرآن: «يد الله مغلولة» فى حين جعله المسيحيون أباً وزوجاً وأشركوا معه ابناً هو المسيح الذى أضفوا عليه صفة الألوهية، وجعلوه ابناً لله حيناً، والله ذاته حيناً آخر.

ولم يكن هناك، بعد تفشى المسيحية التى وضع بولس أسسها، وبقاء اليهودية فى بعض أجزاء من فلسطين والشام، غير طائفة الأبيونيين لتقول هذا الكلام. ولذلك اتهم هؤلاء المستشرقون وغيرهم من المؤرخين الراهب بحيرا بالإلحاد، بل وشككوا فى اسمه فقالوا إنه ليس بحيرا وإنما اسمه سرجيوس أو جرجيس أو نسطور. وهذا — إن دل على شىء — فإنما يدل على أنه كان هناك أكثر من شخص يعتنق عقيدة هذه الطائفة، بل إن هناك دليلاً على أن هذه الطائفة استمرت فى الدعوة إلى عقيدتها، وأنها نجحت فى إقناع بعض العرب باعتناقها ومن هؤلاء ورقة ابن نوفل ابن عم السيدة خديجة زوج الرسول ﷺ وكان قد تنصَّر فى الجاهلية، ولكن عقيدته كانت تقوم على التوحيد وإنكار ألوهية المسيح، أو بنوته لله سبحانه وتعالى، وهى نفس عقيدة الأبيونيين، كما أن من المرجح أن تكون هذه الطائفة قد مدت نشاطها إلى عقر دار الإمبراطورية الرومانية، حيث ظهرت بعض الشيع، ومنها شيعة الثيودوتية التى لم تكن ترى فى المسيح أكثر من إنسان، وشيعة المتبينة

التى تقول إن المسيح ابن الله بالتبنى لا بالطبيعة (٦٥) ، أى أنه إنسان كغيره ولكن الله اصطفاه .

أما الانقراض الحقيقى لهذه الطائفة فقد حدث بعد الإسلام الذى وجد فيه أفرادها القلائل الذين أدركوه ما يتفق وعقيدتهم ، وبعد انتصاراً لها ، حيث إنه بظهوره أعاد الأوضاع إلى ما كانت عليه يوم بدأ المسيح ينشر دعوته بين خراف بنى إسرائيل الضالة ــ بل وإلى ما قبل ذلك يوم كانت التوراة نقية سليمة صحيحة ، قبل أن يحرفها أحبار اليهود .

وهكذا يتضح لنا أن لجوء الفتية إلى الكهف لا علاقة له بثورة اليهود على الرومان ، ولا باضطهاد الرومان للمسيحيين ، ومحاولتهم إجبارهم على ترك المسيحية والعودة إلى عبادة الأوثان ، وإنما كان نتيجة لعملية اضطهاد مزدوج صادر من جماعتين إحداهما تعبد إلهاً غير إله الفتية ، والأخرى تعبد آلهة متعددة من بينها الله ، مما يدل على أن هاتين الجماعتين ، على الرغم من اختلافهما قد تعاونتا معاً فى الاعتداء على الفتية وجماعتهم ، وكل جماعة منهما تهدف إلى إعادتهم إلى دينها : اليهود يريدون أن يعيدوهم إلى عبادة إلههم (يهوه) والمسيحيون يريدون أن يفرضوا عليهم عبادة الثالوث ، وقد حدث هذا عندما اضطلع المدعو «ماركوس» أو مرقص بوظيفة أسقف «أورشليم» وسعى إلى التصالح مع الرومان ومع الكنيسة الكاثوليكية على حساب طائفة الآسينيين وشيعتهم الأبيونيين أو الفقراء وهى شيعة الفتية .

---

(٦٥) قصة الحضارة ، الجزء الثالث ، المجلد الثالث ، صفحة ٢٩٤ .